

دار الكتب www.dar-alkotob.com

دار الكتب www.dar-alkotob.com

نشاء الأدم نسي

الأدب العربي الحديث

دكتور
عبد الناصر محمد السيد
الامتياز السعيد بجانية الأزهر

طبعة ٢٠٠٠ م



دار الكتب www.dar-alkotob.com

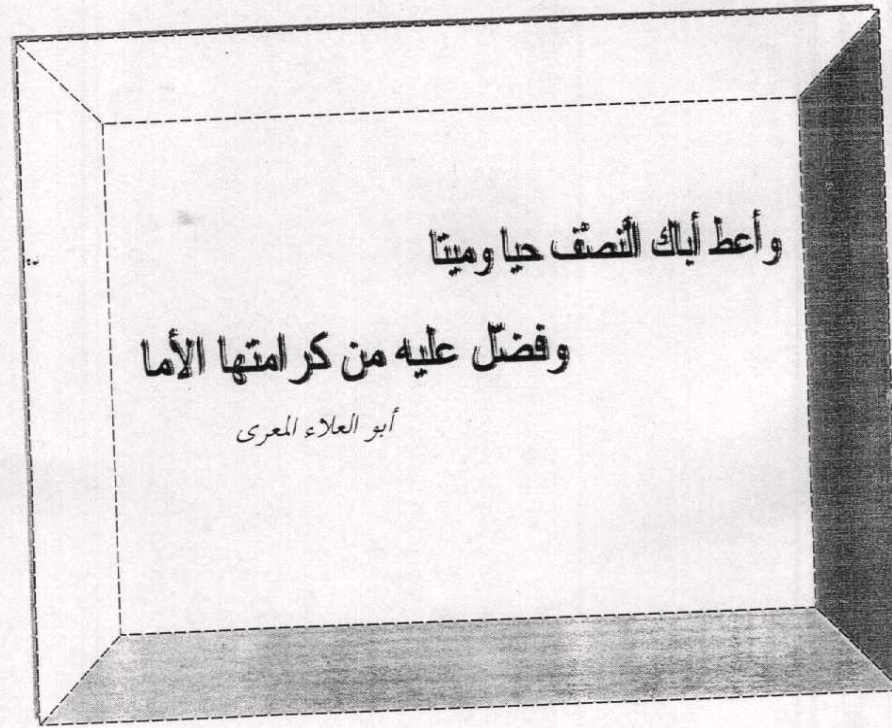
دار الكتب www.dar-alkotob.com

فأى امرئ ساوى بأم حليمة

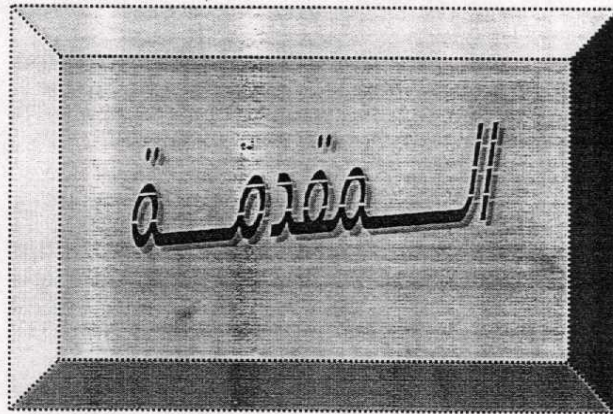
فلا عاش إلا فى شقى وهوان

صخر بن عمرو بن الشريد

دار الكتب www.dar-alkotob.com



دار الكتب www.dar-alkotob.com



دار الكتب www.dar-alkotob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وبعد:-

ففى المكتبة الأدبية، كتيب صغير تحت عنوان "الأم فى أدبنا العربى" لفتى الإيبارى، الدار القومية للطباعة والنشر، تحدث فيه عن الأم فى الأدب العربى قائلاً: "ويخيل إلى أنه بالرغم من تلك القسوة الظاهرة فى مجتمع العرب فى الجاهلية بالنسبة للمرأة، إلا أن قيامة الشعراء العرب، كانت تفضح ما فى أعماقهم من رقة وحنان بالنسبة للمرأة، فقصائدهم مليئة بلوعة الحب والغزل والشوق والهيام، والسهد والغرام. ومع كل هذا، فلم يترنم أحد بأمه فى قصيدة كاملة. وفى إمكاننا أن نمر بعدد كبير من الشعراء، حتى نصل إلى أبى الطيب المتنبي، فتجده يذكر الأم فى قصيدته التى رثى بها جدته لأمه، فهو لم يذكر الأم إلا بمناسبة الموت، وكذلك الحال فى شوقي"^(١)

شغلنى موضوع الأم فى الأدب العربى، وخاصة رثاء الأم فى العصر

الحديث عن رثاء هذا الشاعر لأمه، ومعارضته لشاعر آخر • والأمثلة عديدة، منها ما ذكره الأستاذ الدكتور طه أبو كريشة في كتابه "في ميزان النقد الأدبي" سنة ١٩٧٦م القاهرة، عندما تحدث عن قصيدة أبي فراس الحمداني في رثاء أمه، ومنها ما ذكره الأستاذ الدكتور إبراهيم عوض في كتابه "المعارضة في شعر شوقي" سنة ١٩٨٢م عندما وازن بين المتنبي وشوقي •

ومن ثم فقد رحل - مستعيناً بالله عز وجل - أتبع رثاء الأم في أدبنا العربي الحديث، وقد مهدت هذه الدراسة بالحديث عن رثاء الأم عند الشعراء قبل هذه المرحلة، ثم جاءت الدراسة في فصلين، أولهما يختص بالدراسة الموضوعية، وما تناوله الشعراء في قصيدة الرثاء، وثانيهما تناول بالدراسة الفنية قصيدة الرثاء • وتحدث عن أخص خصائصها • ثم كانت خاتمة الدراسة •

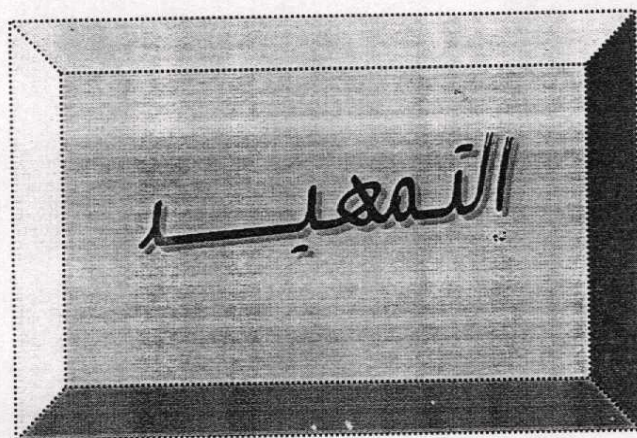
والله أسأل أن ينفع به، ويتجاوز عن التقصير.

آمين

دكتور

عبد الناصر محمد السعيد

دار الكتب www.dar-alkotob.com





دار الكتب

www.dar-alkotob.com

تمهيد

حظيت الأم في القديم والحديث بالعناية والرعاية من فحول الشعراء والأدباء، ولهم قصائد في الأم، في حياتها وبعد مماتها، تعكس لنا وتصور كيف كانت الأم تشكل حياتهم وتصيغ عالمهم.

وأول ما يطلعا من تلك المواقف، تلك الأبيات التي قالها صخر بن عمر بن الشريد عندما مرض قريبا من حول حتى مله أهله، فسمع صخر امرأة، وهي تنال سلمى امرأته: كيف بعلك؟ فقالت سلمى: - لا حسي فيرجى، ولا ميت فينعي، لقينا منه الأمرين. وعلى الجانب الآخر تجيب الأم: بأحسن حال ما كان منذ اشتكى خيرا منه اليوم. ولا تزال بخير ما رأينا سواده فينا، وينطلق صخر معبرا عن هذين الموقفين المتناقضين:-

أرى أم صخر لا تمل عيادتي	وملت سليمى مضجعي ومكاتي
وما كنت أخشى أن أكون جنازة	عليك ومن يغتر بالحدثان؟
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه	وقد حبل بين العير والنزوان
لعمري لقد نيهت من كان نائما	وأسمعت من كانت له أننان
وللموت خير من حياة كأتها	معرس يصوب برأس سننان
وأى امرئ ساوى بأم حليمة	فلا عاش إلا في شقا وهوان (١)

(١) ديوان الحناء ص ٨٥ تحقيق الدكتور إبراهيم عروين، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، ١٩٨٦م والأغصان ص ١٥ ص ٧٨ طبعة دار العودة-بيروت والشعر والشعراء: ابن قتيبة ص ٣٥٢ تحقيق محمد شاكر

وهذه الكلمات وتلك الأبيات من هذا الشاعر ، تشغل البدايات الأولى التي تلمع فيها صورة الأم ، وتجعلنا نقف بحذر أمام تلك المقولة التي تجرد الشعر العربي من هذه اللمحات وذلك حين تقول أويخيل إلي أنه بالرغم من تلك القسوة الظاهرة في مجتمع العرب في الجاهلية بالنسبة للمرأة ، إلا أن قيثاره الشعراء العرب كانت تفضح ما في أعماقهم من رقة وحنان بالنسبة للمرأة ، فقصائدهم مليئة بلوعة الحب و الغزل و الشوق و الهيام و السهد و الغرام ، و مع كل هذا فلم يترنم أحد منهم بأمه في قصيدة كاملة .

وفي إمكاننا أن نمر سريعاً بعدد كبير من الشعراء حتى نصل إلى أبي الطيب المتنبى فنجدته يذكر الأم في قصيدته التي رثى بها جدته لأمه...^(١)

وليس بدايات الرثاء للأم عند المتنبى ، و إنما نستطيع أن نتوقف أولاً عند ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٣ هـ ، وبعده الصنوبري المتوفى سنة ٣٥٤ هـ . هذا من ناحية ، ونستطيع أن نتوقف عند قصائد أبي فراس التي أرسل بها إلى أمه ، والتي لم تكن من الرثاء في شيء ، مما يدحض المقولة السابقة التي تقول بأن الشعر لم يتحدث عن الأم إلا في الرثاء ، وكان ابتداء ذلك عند المتنبى .

(١) الأم في الأدب : فتحى الإبراهيمي ص ٢٤ ، الدار القومية للطباعة والنشر

كما أننا عندما نتحدث عن ابن الرومي في رثاء أمه ، نحاول أن
نصحح المقولة القائلة بأن الصنوبري هو أول من ساق قصيدة رثاء في
أمه (٠٠) لقد كان الصنوبري من أقدم الشعراء الذين رثوا أمهاتهم إن لم
يكن أقدمهم (٠٠٠) (١)

ابن الرومي :

وقصيدة ابن الرومي في رثاء أمه وهي من أطول قصائد الرثاء ، إذ
أنها تطول حتى تصل إلى مائتين وخمسة أبيات ، وهي قصيدة ميمية من
بحر الطويل قافيتها ساكنة ، يبدأها هذا الابن الملتاع بالحديث عن أثر
الفاجعة على نفسه فيطلب من عينه أن تسعفه بالدموع بل بالدماء ، فليس
كثيرا على من فقد أمه أن تجود عينه بالدماء ولا تستريح من البكاء ، ولا
تميل إلى الكرى . لقد تقطع ما بينه وبين العيش من صلات ، فقد رمى
بخطب يصعب على الجبال تحمله:-

- | | | |
|---------------------------------|--------------------------------|-----------------------|
| ١- أفيضا دما إن الرزايا لها قيم | فليس | كثيرا أن تجود لها بدم |
| ٢- ولا تستريح من بكاء إلى كرى | فلا حمد ما لم تسعدني على السأم | |
| ٣- ربا لذة العيش التي كنت أرتضى | تقطع ما بيني وبينك فانصرم | |

(١) العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف ص ٣٥٨ . دار المعارف ، الطبعة السادسة .

وواضح أن الشاعر هنا يدخل بنا مباشرة إلى تصوير حاله ، ويصلنا
رفضه للذات العيش ، ويلجأ إلى عينه طالباً منها إسعافه بالدموع بل
بالدماء ، ثم يعلن سبب ذلك ، فقد رمى بخطب جلال لا تتحمله الجبال ، لقد
كان هذا الخطب الجلال وهو موت تلك الأم التي كان يحيا بروحها ،
ويستدفع بها البلوى ، ويستكشف الغم:-

- | | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| ٤-رميت بخطب لا يقوم لئله شورى | ولا رضوى ولا المضب من خيم |
| ٥-بانكر ذى ذكر واقطع ذى شيا | واقتر ذى طعم وأوخم ذى وخيم |
| ٦-رزينة أم كنت أحيا بروحها | وأستدفع البلوى واستكشف الغم |

قضية جديدة بالمناقشة:-

وفى قصيدة ابن الرومى التى بين أيدينا ، قضية جديدة بالمناقشة ،
وهى أن الشاعر بدأ قصيدته بكاء هذه الأم فى أربعة وعشرين بيتاً ، ثم
ترك بكاء الأم ولجأ الى سوق القصص ، فقد بدأ الشاعر حديثه عن الدهر
والمواعظ ، ثم ساق قصصاً للتسلية ، وساق نماذج كثيرة لم تبق رغم
منعتها وعزتها ، ولم تصمد أمام الدهر ، وهو يصرح بقوله :-

"أرى الدهر لا يبقى على حدثانه" ، وهذا المطلع يذكرنا بقصيدة أبى
ذؤيب فى رثاء أولاده، عندما ساق قصصاً ليسلو بها عن الفجعة. كان

مطلع هذا القصص "الدهر لا يبقى على حدثانه" . على أن ابا ذؤيب قد بدأ قصيدته بالتفجع ، ثم ساق هذا القصص ليسلو ، وينسى^(١)

ولكن ابن الرومي يسوق هذا القصص من بدايصة البيت الخامس والعشرين ، إلى البيت الخامس والثلاثين والمائة ، أى أنه ساق قصصا فى مائة وعشرة من الأبيات:-

أرى الدهر لا يبقى على حدثانه شبيب الأعلى جهورى إذا بغم

ثم يسوق القصصة .

ولا نقتن خاطى البضيع صمصح من الأكلات النار تاتج فى الفحم

ثم يسوق القصصة .

والمفترض أنه سلا بعد ذلك . ولكننا بعد هذا الكم الهائل من الأبيات نجد الشاعر يعود إلى البكاء والتفجع على أمه تفجعا مرًا أسرا ، وشجوا باكيا ، ونغما حزينا .

١٣٦- أحاملى : أصبحت حملا لحفرة	إذا حملت يوما فليس لها قـ
١٣٧- أحاملى : استحمل الله روحه	إلى تلكم الروح الزكية والنسم
١٣٨- أمر صفى: أسترضع الغيث درة	لرمسك بل استغزر الدمع ما سجم

ويستمر ابن الرومي في رثاء والدته في تسعة وستين بيتاً لا تخدم فيها عاطفته ، فهو يخاطب والدته بأنه سيجرم نفسه من التعميم والابتسام والمرح ، وكيف يمرح فوق الأرض ، وقد هيل التراب على تلك الأم:-

أمرح فوق الأرض يا أم والثرى عليك مهيل قد تطابق وارتكم ؟

إنه لعزيز على نفسه أن يعيش وقد ماتت أمه ، ولكنه حكم الموت ، ولو قبل هذا الموت القداء لبذله:-

عزيز علينا أن تموتى وأننا نعيش ولكن حُكم الموت فاحكم
ولو قبل الموت القداء بذله ولكنما يعتام رائده الصيم

ثم يعود إلى تصوير حاله ، فهو سيبقى بمنثور الدمع تارة ، وبمنظوم الشعر تارة أخرى . ولو نظرت الأم إلى حاله بعد موتها ورأت ألمه لعرفت أن داهيته أشد ومصيبته أعظم:-

ولو نظرت عيناك يا أم نظرة إلى ما توارى عنك منى واكتهم
فقت بما القاه ما قد لقيته شهدت بحس أن داهيتى أطم

لقد صار لا يستحسن شيئاً يراه ، ويستهن كل ما يسمع من نغم وطرب ، وأصبحت الآمال والأمانى غادرة ، وفارق الخلان ، وصار يأنس إلى الوحدة ، إنه يسمع كلمات الغزل فلا يطيب خاطره ، ولا تهدأ نفسه ، كيف وقد أورثه فقد الأم وقدة في القلب كالنار في الضرم ، وكلما

لا يبرئه غير الله . هو الواهب السلوان ، لقد أظلمت النفوس بعقدتها ،
وابيضت اللمم ، وأظلمت الدنيا وأجديت الأرض:-

ومادت لك الأجيال حتى كأنما شواهقها كانت بمخياك تدغم

وصار السحاب باكيا ، وناحت عليك الريح:-

وقامت عليك الجن والإنس مأتما تبكي صلاة الليل والخمص والمضم (١)
وأضحت عليك الوحش والطير ولما تبكي الرواء النضر والمخير العمم

ومع هذه المشاركة من الكون كله بأنسه وجنّته وسحابه ورياحه
ووحشه وطيره حزن على هذه الأم ، فإن السموات العلى تغمرها السعادة
مستبشرة بروح هذه الأم .

ومادت لك الأجيال حتى كأنما شواهقها كانت بمخياك تدغم
وأما السموات العلى فتباشرت بروحك لما ضمها ذلك المضم

ويصف هذه الأم بأنها صوامة قوامة:-

لقد فجعت منك الليالى نفوسها بمحية الأسحار حافظة القيم
ولم تخطىء الأيام فيك فجعة بصوامة فيهن طيبة الطقم
وفات بك الأيام حصن كنافية دقء عليهم ليلة القر والتتم
رجعنا وأفردناك غير فريدة من البر والمعروف والخير والكرم

(١) أشار المحقق في المامش إلى أن النسخة (ع) فيها "أقامت" وعلق بقوله "وهي جيدة"

ثم يختم قصيدته بالدعاء لهذه الأم بآئس المحل ووابل الديم:-

- ٢٠٣- فلا تدمي أنس اغل فطالما عكفت وآئتس الخارب في الظلم
٢٠٤- كست قيرك القر المباكر حلة مفتوحة من صفة الويل والدم
٢٠٥- لها أرج بعد الرقاد كأنما يحدث عما فيك من طيب (٢)

أما عن طول القصيدة، فقد لفت نظر الدكتور طه حسين، وقال عن ذلك إنه (٠٠ شاعر مطيل ومطيل جداً يبلغ بقصيدته المئات من الأبيات ٠٠)^(١) وهذه حقيقة تمثلت في كثير من قصائده وليس في قصيدة الرثاء فقط. ولكن القضية التي تلفت النظر وتشغل الذهن هي ما لاحظناه من سوق القصص بعد رثاء أمه، ثم العودة إلى الرثاء والرثاء الحاد، الدامع المفجع لهذه الأم بعد هذا القصص الطويل.

الصنوبري (٢):-

بطالعنا صوت الصنوبري في رثاء أمه بعد صوت ابن الرومي، وقد مرضت أم الشاعر مرضاً شديداً، وذبل عودها وجف هذا العود حتى ماتت. ولذلك فنحن مع شاعر لا يواجه مرارة الموت بقدر ما يواجهه

ديوان ابن الرومي : تحقيق د حسين نصار . الجزء السادس ص ٢٢٩٩

(١) من حديث الشعر والنثر د طه حسين . ص ١٣٤ دار المعارف الطبعة العاشرة

(٢) أحمد بن محمد بن الحسن القسي الصنوبري . ترجم له باقوت في معجم البلدان عن حديثه عن (حلب) وهو من شعراء العصر العباسي الثاني وتوفى سنة ٣٣٤ هـ

مرض الأم ومعاناتها وأناتها وما كانت تحدثه تلك الأنات في نفس الشاعر، وظل هذا الحال حتى ماتت، ولذلك يبدأ الشاعر قصيدته بتلك اللفظة (صوحت)، قد صوحت روضتي، ذبلت وجفت تلك الروضة. وبالحال من جملة تقريرية أوجع في النفس وألم في القلب من آلاف الاستعارات

قد صوحت روضتي الموقنة	وانتزعت روحى المورقة
باب إلى الجنة ودعته	مذ رأيت الموت قد أغلقه
لا يبعدن مشواك يا أم ما	أبعد مشواك وما أسحقه
قد صدق الموت الذى لم أزل	أحذره فيك وقد حققه
يقلق أحشائي مضجعى	تذكرى أحشائك المقلقة
وحملك السقم وأعياه	في حسد أضعف من بروقة (١)
لله أم مسايى حرقا	مجددا أحزاني المخلقة

والشاعر هنا يشير من بداية القصيدة إلى تلك الأم وقد صوح نبتها بعد أن كان روضة غناء، وهو يرسم صورة لأمه بعد أن هدها وأسقمها المرض وصدق الموت ما كان يحذره الابن كل يوم، ومن هنا عاد الشاعر سريعا بعد أربعة أبيات إلى تذكر تلك الأم ومعاناتها للآلام، فقد حملت الأسقام في جسدها الضعيف وراحت تنن وتتوجع:-

(١) البروق: شجر ضعيف له لمر. لسان العرب مادة برق

كم أودعت أذن من أنفة
ومن تشك كنت أولى به
قول والأنفاس قد صاعدت
بالمنايا كيف أنجرو بها
من تحامى أن ترى ظلمة
ومن تضيق الأرض في عينها
تودع قلبي جرة محرقة
أسهمه في كبدى مطلقه
في الصدر منها وهى كالطرقة
من كرمها وهى بما محدقة
أسكنتها في ظلمة مطبقة
أهديتها للحفرة الضيقة

لقد أضناه ما أضناها، وأسقمه الذى أسقمها، فشكايتها كانت سهاما فى كبده، وأنينها كان جمرا فى صدره، ثم يظهر عجزه أمام الموت فى استفسارات حائرة، كيف ينجو بها والمنايا محدقة؟ وكيف أسكنها فى ظلمة مطبقة، وقد كانت تتحامى أن ترى الظلام؟ ومن تضيق الأرض فى عينها، كيف أهداها إلى تلك الحفرة الضيقة؟ ثم يختم قصيدته بالدعاء بالسقى لذلك الثرى الذى ترقد فيه:-

بكت ثرى أنت به مزنة
ولا غلا من زاهر مشرق
عوبغا بالدمع مغرورقة
مبتسم عن زهرة مشرقة (١)

المنتبى:-

نحن مع المنتبى فى هذه القصيدة نواجه بظروف عديدة، نواجه بالشاعر وعبريته من ناحية، واعتزازه بنفسه وبفنه من ناحية أخرى، وبألم

(١) ديوان الصنوبرى - تحقيق د/ إحسان عباس - ص ٤٤٢ دار الثقافة - بيروت لبنان سنة ١٩٧٠ م

ليست ككل الأمهات من ناحية ثالثة، فهي جدته التي ينتمى إليها أو تنتمى إليه، وهي كل أهله، وهو كل أهلها وكل شيء لها في الحياة. والظروف التي مانت فيها الجدة ظروف غير عادية، فقد يئست الجدة من طول غياب المتنبى، أصابها اليأس والقنوط، وفقدت كل أمل في عودته، وفجأة وبعد طول غياب، وصلها منه كتاب، كان لها بمثابة الروح التي ردت إليها، وفرحت الجدة بهذا الكتاب فرحا شديدا، وكم من فرح أعقب ترحها، لقد حمت الجدة لساعتها وماتت.

تلك ظروف غير عادية أنشد فيها المتنبى قصيدته، وصور فجيعته، والمتنبى لم يذكر أمه في ديوانه لا راضيا ولا ساخطا ولا مسرورا ولا مخزونا (١) ولم يرث المتنبى أحدا من أقاربه سوى جدته، وأما بقية مرثياته فقد كانت في أشخاص لا يمتون إليه بصلة قرابة (٢)

لقد أرسلت الجدة إلى المتنبى كتابا تبث فيه شوقها، وتشكو من طول غيابه عنها، فتوجه المتنبى نحو العراق، ولم يتمكن من دخول الكوفة، فتوجه إلى بغداد، وكتب إليها المسير إليه، وكان ما كان من شدة فرحها وموتها، وتألم المتنبى ألما شديدا، وراح يبكيها مر البكاء.

(١) مع المتن: طه حسين ص ١٧

(٢) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتن: د/ طه أبو كريشة ص ١٥٦

قصيدة المتنبي في رثاء جدته

مطلع القصيدة:-

ألا لا أرى الأحداث مدحا ولا ذمّا فما بطشها جهلا ولا كفها حلما
إلى مثل ما كان الفتي مرجع الفتي يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى (٣)

وهو مطلع حائر قلق متردد، فالحوادث التي وقعت، وتسببت في غربته وبعده عن جدته، والحوادث التي حالت دون رجوعها إليها ، والتي كانت سببا في موت الجدة دون أن يراها ودون أن تراه، ترى أينم هذه الأحداث؟ إن الأحداث لا تبطش جهلا، ولا تكف حلما، . وإذن فلا مدح ولا ذم، فكل شيء بيد الله عز وجل وإرادته، وإنما نسبة الفعل إلى الأحداث من المجاز، وسنة الحياة أن تكون بداية ونهاية وزيادة ونقصان .، ومن هنا يجد الشاعر نفسه مباشرة ودون أن تطول حيرته يبكى هذه الجدة التي فجعت بحبها، والتي قتلها الشوق والوجد إلى ابن عزيز، فهو حب لا يعاب، لأنه شوق الأم إلى ولدها .

لك الله من مفجوعة بحبيها قتيلة شوقي غير ملحقها وصما

ثم يعود إلى الحديث عن نفسه، وعن أثر اللبالي والأحداث عليه ،فقد تعود ذلك من الزمان وكر اللبالي، فلما ماتت الجدة لم يكن الأمر بالمستغرب من اللبالي وكرها:-

(٣) الإبداع: الخلق، وأكرى الشيء: نقص، وأرمى: زاد

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهني لم تزدني بما علما
ثم يعود إلى الحديث عن جدته، فهي كانت تؤثر غيرها على نفسها،
وتعود إذا جاعت لتطعم الناس، وشبعها وريها وفرحتها وسرورها إذا
أشبعته الناس وجاعت هي:-

منافعها ما ضر في نفع غيرها تغذى وتروى أن تجوع وأن تظما
ثم يقسم البيت الذي يليه بينه وبين جدته ، فهي قد أتاها كتابه بعد
يأس وطول غياب، فماتت سرورا بالكتاب وما فيه، ومات المتنبى غما
على جدته:-

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سرورا بي فمت بما غما
ثم ينتقل إلى الحديث عن نفسه في بيت واحد أيضا، فإذا كان السرور
قد قتل الجدة . فإياه سيحرم على نفسه السرور ولن يقربه لأنه كان سببا
في قتل الجدة:-

حرام على قلبي السرور فإني أعد الذي مات به بعدها مما
وهكذا من بدالية القصيدة، وهو يرفض الابتعاد عن جدته، فإذا تحدث
عن نفسه واصفا حاله في بيت من الأبيات، ركض سريعا إلى جدته يصفها
في بيت آخر وهكذا . ثم تغير الحال بعد ذلك، وبداله أن الفراق حقيقة
واقعة ولذا راح يباعد بينه وبين جدته في الحديث، ونراه في الأبيات التي

أنت بعد ذلك يصف جدته وحالتها فى أربعة أبيات، وهذا لم يحدث من بداية القصيدة . إنه يصف حالها وهى تتطلع فى خطابها، وتتمعن فى حروفه وسطوره، كأنها تريد أن ترى ولدها بين هاتيك السطور، إنها لا تصدق أن ابنها موجود، ولذا فهى ترى فى حروفه وسطوره شيئاً عزيزاً نادراً مثل الأغربة التى فى جناحها بياض . لقد راحت تملأ نظرها فى السطور وانكبت على الخطاب لثماً وتقبيلاً، حتى حول المداد محاجر عينيها مع الدموع إلى سواد، لقد أدمى حب الشاعر قلبها وهى حية، ولها هو الموت ينهى كل شيء، تجف الدموع والجفون، ويخمد هذا الحب العفيف:-

تعجب من لفظى وخطبى كأنما	ترى بحروف السطر أغربه عصما
وتلمسه حتى أصار مداده	محاجر عينيها وأنيابها سحما
رقاد دمعها الجارى وجفت دموعها	وفارق حى قلبها بعد ما أدمى
ولم يسألها إلا المنايا وإنما	أشد من السقم الذى أذهب السقما

لقد ماتت الجدة وجفت دموعها ، وذهب سقمها ، بل وجبها لولدها ، ومن هنا صار الشاعر وحده فى مواجهة الحياة، فى مواجهة للشامتين والحاقدين ، ولذا نراه وقد فرغ للحديث عن نفسه لا يتحرر فجأة ، ولكنه يتحدث عن الفراق وقد كان طلباً للرزق ، مع أن الجدة كانت راضية به وحده قسماً ونصيباً ، لو رضى هو وقنع ، وإذا كان الشاعر يستسقى الغمام لقبرها ، فقد كان قبل ذلك يقاتل ويطلب من الرماح أن تسقيه دماء الأعداء ، لقد كان قبل موتها يستعظم النوى ، ويتألم من الفراق ، فصار

هذا الفراق هونا يسيرا بجانب الفراق الأعظم وهو الموت . وإذا أخذ الشاعر ثأره من الأعداء فكيف يأخذ بثأره من الحمى التي انتزعت جدته منه؟ لقد سدت السيل أمام الشاعر ، وما ذاك لضعف منه ، ولكن موت الجدة حوله إلى أعمى يتخبط ، لا يرى الطريق ، ثم بصرخ متحسرا ، واحسرتاه أن فاتتني وداعك وتقبيل رأسك وصدرك ، وقد ملثا حزما وحكمة وآسفاه إن فاتتني وداع تلك الروح الطيبة الطاهرة ، وكفاك فخرا أيتها الجدة أنك ولدت هذا الشاعر الفحل وإذا كان المتنبى قد تحدث عن جدته فى أربعة أبيات سابقة ، فقد تحدث عن نفسه وعن جدته فى ثمانية أبيات اشتركا فيها:-

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| ١- طلبت لها حظا فسات وفاتني | وقد رصيت بي لو رصيت بما قسما |
| ٢- فأصبحت استسقى العمام لغيرها | وقد كنت استسقى الوغى والقنا الصمد |
| ٣- وكنت قبيل الموت استعظم النوى | فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى |
| ٤- هبني أخذت الثأر فيك من الفدى | فكيف يأخذ الثأر فيك من الحمى |
| ٥- وما انسدت الدنيا على لضيقها | ولكن طرفا لا أراك به أعمى |
| ٦- فوا أسفا ألا أكب مقبلا | لصدرك والرأس الذى ملثا حزما |
| ٧- وألا ألقى روحك الطيب الذى | كان ذكى المسك كان له جسما |
| ٨- ولو لم تكوني بنت أكرم والد | لكان أباك الضخم كونك لي أما |

وقد كان هذا البيت الأخير ، الذى يقول فيه لجدته "إن أباك الضخم كونك لي أما" كان بابا واسعا لولوج إلى الفخر ومواجهة الشامتين والترفع عليهم والفخر بنفسه حين ينهى القصيدة بقوله:

لئن لذ يوم الشامين يومها لقد ولدت مئ لأفسهم رغما (١)

إلى أن يقول :-

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحتي مهجة تقبل الظلما

المنتبى والوعى الفنى:

توزعت أبيات القصيدة بهذا الترتيب وجاءت على هذا النسق، فبيت يقسمه هو وجدته ، وبيت له وبيت لجدته ، وأربعة أبيات خاصة به وأخرى بعدها وبنفس عددها يتحدث عن جدته ، ثم ثمانية أبيات يشترك فيها مع جدته ، فهل يعنى هذا التوازن تصوير الشاعر للتلاحم والترابط النفسى بين الشاعر وبين جدته؟ هل كان المنتبى على وعى بهذا التقسيم الدقيق لأبيات القصيدة؟ هل قصد المنتبى إلى تقسيم قصيدته إلى مقاطع ، المقطع الأول من ثمانية أبيات يقسمها بينه وبين جدته ، بين الحديث عن نفسه فى بيت ، ثم يتلوه بآخر عن جدته وهكذا- إلى آخر المقاطع؟ هل قصد هذا ذلك؟ وإذا لم يكن يقصد ، فهل تتأزل عن الأنا المتضخمة عنده بحيث أنه كان يضع نفسه بجوار الممدوح ، حتى ولو كان سيف الدولة نفسه [ويكفى أن تراجع مدائحه ، فسوف نجد الكثير منها ينهض على تلك المعادلة المقدره بين وجهين يتفوق كل منهما بما ليس فى الآخر ، ويكتمل

(١) شرح ديوان المتنى لليازجى جـ ١ صـ ٣٤٨ ، دار صادر بيروت

كل منهما بصاحبه اكتمال العملة بوجهيها ، فلا تدرى هل كان الشاعر
يضع عينه على ممدوحه فقط، أم كان يجلو نفسه من خلاله؟ وهل كان
يراه وحده أم كان يرى نفسه معه:

خليلى: إنى لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد

فتفرد الفنان بشعره برغم كثرة الأدياء ، لا يحاكيه ويتوازي معه إلا
تفرد سيف الدولة برغم كثرة السيوف وهو يعكس لنا اعتزاز المتنبي بنفسه
حتى وهو يمدح سيف الدولة ، فهو يقرن نفسه بسيف الدولة ، أو قل نقل إنّه
يمدح سيف الدولة عندما يضعه بجواره ، وهو الذى يقول فى قصيدته
الذى يرثى فيها جدته:-

تفرد لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا خالقه حكما

فهو لا يستعظم إلا نفسه ، ولا يقبل حكما غير حكم الخالق عز وجل،
والواقع أن المتنبي لا يستطيع أن يفسح مكانا للآخرين بجواره ، حتى ولو
كان هذا الآخر هو جدته التى ماتت شوقا إليه ، والقصيدة التى بين أيدينا ،
وإن كانت شاهد صدق على أنه أفسح لجدته مكانا بجواره ، فهى آية صدق
كذلك على أنه أغفل جدته بعد هذه الأبيات ، وتناساها ، وراح يفتخر بنفسه
ملتفتا إلى ذاته ، فى اثنى عشر بيتا ، تحدث فيها عن نفسه محلقا فوق
الوجود بذاته:-

لئن لـذ يوم الشامتين بموقفا
تغرب لا مستعظما غير نفسه
ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة
يقولون لي ما أنت؟ في كل بلدة
كان بينهم عالمون بأنني
وما اجمع بين الماء والنار في يدي
ولكنني مستنصر عند بابيه
وجاعله يوم اللقاء تحيى

لقد ولدت مني لأنفسهم رغما
ولا قابلا إلا خالقه حكما
ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يسمى
جلوب إليهم من معاندته اليتما
بأصعب من أن أجمع الجند والقهما
ومرتكب في كل حال به الغثما
وإلا فلست السيد البطل القرما^(١)

أبو فراس الحمداني (١) :

بين يدي القصيدة:-

لقد أسر أبو فراس في بلاد الروم ، وأرسل قصائد استعطاف إلى ابن
عمه ليخلصه من أسره ، تلك القصائد التي عرفت هي وغيرها بالروميات،

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي : الشيخ ناصيف البازجي ، المجلد الأول ص ٣٤٨
(٢) أبو فراس الحمداني (٣٢٠-٣٥٧هـ) هو أبو فراس الخوارزمي بن سعيد بن حمدان الحمفوني ، صباه والده الخوارزمي ، وكنيته أبا
فراس . وقد قتل والده وهو في الثالثة من عمره ، وعاش يتيمًا تحضنه أمه ، ويطلق عليه ابن عمه سيف الدولة ، ولما استولى
سيف الدولة على سرير الملك حمل معه أبا فراس ، و في قصر الملك درس العلم و الأدب و تعلم الفروسية ، فأجده كمين مسن
الروم ، ففر أصحابه و قاتل وحده حتى أسر ، و بقي في الأسر سبع سنوات إلى أن اقتداء سيف الدولة . ومات سيف الدولة
بعد عودة أبي فراس من سجنه سنة واحدة ، و قد حاول أبو فراس أن ينصب من نفسه أميراً على حمص ، فأرسل أبو المعالي
ابن سيف الدولة جنوده لقتال أبي فراس و هزمته و قتلته سنة ٣٥٧ هـ .

وقد ذهب صوته أذراج الرياح ، مما هز تلك الأم ، وحركها من "منبج"
إلى "حلب" تستعطف سيف الدولة ، وتسفح الدموع أمامه ، علّه يرق لها ،
وينقذ ولدها ، ولم يستجب لها سيف الدولة ، وردّها خائبة تحمل في قلبها
حسرة وألماً . ويصل الخبر إلى أبي فراس ، إلى الأسير في بلاد السروم ،
ويجثم الهم على قلبه ، وينثث قصيدة تضحّ بالآلم وتفيض بالحزن :-

يا حسرة ما أكاد أحلها	آخرها مزعج وأولها
عليلة بالشام مفردة	بات بأيدي العدى معلها
تمسك أحشاءها على حرق	تطفئها والهموم تشعلها

وهو يشير إلى تلك الأم التي باتت عليلة ، وعلتها هي شوقها إلى ابنها
الأسير ، طيبها ومعلها في أيدي الأعداء . ومن ثم فهو يلجأ إلى مخاطبة
أمه ، مناديا عليها ، مستشعرا وجودها رغم هذه الحواجز ، متأبيا على
المسافات والأسر إلى أن يقول :-

يا أيها الراكبان هل لكم	في حمل نجوى يخف حملها
قولا فما إن وعت مقالكما	وإن ذكرى لها ليذهلها

ثم يتجه إليها مباشرة بقوله :-

يا أمتا هذه منازلها	تركها تارة وتزلها
يا أمتا هذه مواردنا	نعلمها تارة ونهلها

وإذا كان الشاعر يحاول بهذه الكلمات أن يهدأ ويطامن من خزن الأم، ويصور لها ما هو فيه على أنه أمر طبيعي وعادي، فالأسر منزل الشجعان والفرسان، وليس بموطن لجبان، وتلك أمور عادية، وموارد ينهل منها و يعل كل فارس صنديد، ومع ذلك لا يستطيع الشاعر أن يسترسل، فهو أدري الناس بأن الأم لن تخذعها هذه الكلمات، ولن تشغلها عن حزنها الذي يعتصرها، ولذلك يلتفت مباشرة إلى ابن عمه

معاتباً ومطالباً إياه بتخليصه من الأسر لإبرغم أن القصيدة تحمل شيئاً من التكرار في صورة اللفظ والمعنى، إلا إن الصدق العميق الذي يغلف القصيدة كلها، يجعل لهذا التكرار مذاقاً مختلفاً، فهو يدلا من أن يصبح تطفلاً على القصيدة، يزيد من العمق في المعنى العام الذي يريد أن يصل إليه، ويشكل إضافة للبعد النفسي الذي يحاول الشعر أن يرسمه بإتقان^(١)

وقد ثقلت جراح أبي فراس في أسره، وكانت أكثر الجروح عليه جرح أمه الذي ينزف لغيابه وفراقه فأرسل إليها هذه الأبيات يصبرها ويردها عن الجزع إلى الصبر الجميل :-

وإن وراء السر أما بكأؤها على وإن طال الزمان طویل
فيا أمتا لا تعدمى الصبر إنه إلى الخير والنجاح القريب رسول

(١) دراسات في الأدب العربي : محمد إبراهيم أبو سنه ص ٥٣ سلسلة اقرأ

ويا أمنا لا تخطي الأجر إنه
أما لك في ذات النطاقين أسوة
على قدر الصبر الجميل جزيل
بمكة والحرب الصوان تحول (٢)

أبو فراس يبكي أمه:-

وسط هذا الجو النفسى المؤلم، والأسر والقلق وعدم الفداء، ماتت أم
أبي فراس، وبلغه الخير وهو في الأسر، وراح الشاعر الفارس يتلوى من
الألم وعزفت قيثارة الشعر هذا الصوت النائح الباكي:-

أيا أم الأسير سفاك غيث بكره منك ما لقى الأسير
أيا أم الأسير سفاك غيث تحير لا يقيم ولا يسير
أيا أم الأسير سفاك غيث إلى من بالفدا يأتى البشير

بهذه الجمل النائحة النادية يفتتح الشاعر مراثيته، طالبا لأمه الرحمة
والمغفرة والسقيا. لقد كان ينتظر الخروج من الأسر لتكون فرحة أمه، لقد
كان يتمنى الفكاك من أسرهِ ، لا شئ إلا لتسعد بهذا الخبر ، كان يتمنى أن
يخرج لتراه فى أحسن زينة ، وها هى أمانيه تذهب أدراج الرياح .

إذا ابتك تسار فى بر وبحر فمن يدعو له أو يستجير
حرام أن يبيت قريز عين ولؤم أن يلزم به السرور
وقد ذقت المنايا والرزايا ولا ولد لديك ولا عشير
وغاب حبيب قلبك عن مكان ملائكة السماء به حضور

السماع:-

(١) دمر : تركت الملح ولما رأى ذلها ولحقا للهنالك وحشة الحرب، دمر:الذى كان سحما في المقام

وهو فى هذه الأبيات يندب تلك الأم ، ويبكى ما أصابها ، مناديا عليها ولا مجيب ، مكررا النداء ولا استجابة ، كم أصابها من هم طال بها دون نصير أو مدافع ، لقد كانت مستودع أسرار ، وماتت ومعها أسرار كثيرة ، وكم انتها من بشارات بقرب اللقاء ، وحال الأجل دون تحقيق هذه الأمانى:-

إذا ضاقت بما فيها الصدور	إلى من أشتكى ولمن أنساخى
بأى ضياء وجهه استنير	بأى دعاء داعية أوقى
بمن يستفتح الأمر العسير	بمن يستدفع القدر الموقى
إلى ما صورت فى الأخرى نسير	نسلى عنك أنا عن قليل

وهكذا فى أربعة أبيات أخيرة يختم الشاعر بها قصيدته ، يعود إلى الحديث عن حاله بعد فقد والدته ، فى أسئلة حيرى لا تجد لها إجابة، غرضها الإقرار بالعجز والضعف والخسارة الفادحة ، لمن يشكو؟ ومن يناجى إذا ضاقت الصدور واحتاج الابن إلى من يناجيه؟ من الذى يدعو له بالوقاية من الشرور؟ بأى وجه يستنير وقد كان وجهها الضياء والنور له؟ بمن يستدفع القدر؟ وبمن يستفتح الأمر العسير؟ لقد كانت عوناً له وسنداً فى الأمور كلها . أيهنأ له عيش؟ أيسطيع العيش بدونها؟ إن العزاء الوحيد لهذا الابن بعد فقد أمه ، أنه لاحق بها عما قليل ، وأنه صائر إلى ما صارت إليه.

□ بين المتنبى وأبى فراس:-

هناك صلة ما تربط بين المتنبى وأبى فراس . ولا أعنى بهذه الصلة بلاط سيف الدولة الذى ضمهما معا ، ولا العزة وطلب المجد الذى يجمع بينهما ، ولا شاعرية كلا منهما ، ولكن الصلة التى أقصدها هى ما يخص الموضوع الذى نحن بصددده ، وهو رثاء الأم . فالذى رثى المتنبى هو جدته ، وقد قتل والد أبى فراس وهو فى الثالثة من عمره ، وعاش يتيمًا تحتضنه أمه أيضا . هذه واحدة تجمع بين الشاعرين . والثانية أن جدته المتنبى قد ماتت وهو غائب عنها . وكذلك ماتت أم سيف الدولة وهو غائب عنها فى غياهب جب الأسر . والثالثة أن المتنبى أرسل رسالة لجدته يخبرها فيه بعودته ، وكذلك أرسل سيف الدولة قصيدة إلى أمه يشير عليها بالصبر والتأبى .

ولكن واحدة تباعد بين المتنبى وأبى فراس وهى واحدة لها خطرهما وأثرهما فى بناء القصيدة ، وهذه الواحدة الفارقة هى الظروف التى كان يعيشها أبو فراس وقت إنشاء قصيدته ، لقد كان أسيرا فى أيدي الروم ، وكم أرسل القصيدة تلو القصيدة يستعطف فيها سيف الدولة ليخلصه من الأسر ، ولكنه بقى فى أسره سبع سنوات ، وقد راحت أمه تستعطف سيف الدولة فردها خائبة ، وراح أبو فراس يجتر أحزانه فى أسره عاتبا على سيف الدولة:-

بأى عنبر رددت وانهملة
جاءتلك قمتاح رد واحدها
عليك دون السورى معروفها
ينتظر الناس كيف تقفلها(١)

وهى ظروف نفسية كان لها تأثيرها على رثاء أبى فراس لأمه ، بعكس
المتنبى وقد كان حرا طليقا ، ومن هنا فقد ملأ قصيدته بالفخر والتحدى
للآخرين .

الوعى الفنى عند الشاعرين:-

انقسمت القصيدة عند المتنبى وعند أبى فراس إلى مقاطع متساوية ،
وقد توزعت بين الحديث عن الأم والحديث عن الشاعر من ناحية أخرى .

وقد اتضحت هذه الظاهرة عند أبى فراس بصورة جلية . ومن يرجع
إلى "كتاب فى ميزان النقد الأدبى" (٢) يلاحظ تقسيم المؤلف للقصيدة إلى
مقاطع متساوية تماما ، يتكون المقطع الأول من أربعة أبيات ، وكذلك
المقطع الثانى والثالث والمقطع الرابع ثلاثة أبيات ، والمقطع الخامس
أربعة أبيات . ومن هنا نجد توزع عاطفة الشاعر بينه وبين أمه .

(١) ديوان أبى فراس ص ٢٤٣

(٢) فى ميزان النقد الأدبى . د طه أبو كربشة ص ١٤٢

وكذلك فعل المتنبي حين قسم قصيدته إلى مقاطع بينه وبين جدته ، وإن كان في نهاية القصيدة قد غلبته أثرته وحبه لنفسه ، فاختتم قصيدته بالفخر والحديث عن نفسه .
الشريف الرضى:-

من الشعراء الذين بكوا الأم بكاء مرا مؤثرا يقطع نياط القلوب:
الشريف الرضى فقد رثاها في سنة ٣٨٥ هـ في قصيدة طويلة تربو على خمسة وستين بيتا . وقد ماتت وعنده ست وعشرون سنة^(١) وقد جاءت قصيدته في أمه عميقة مؤثرة ، سكب فيها عصاره قلبه ، واسمى مثناعره وأحاسيسه ، فهو حائر ملتاع متفجع ، يتمنى لو ينفعه البكاء أو القول أو التصبر ، ولكنه يعلم أن كل ذلك لا يعيد مفقودا أو يرد ميتا . إنه يتقلب بين التصبر تارة ، وبين الدموع تارة أخرى ، وتارة ثالثة يغلبه الحياء ، إنه يغالب دمه ويستره ، مبديا التجلد لعدوه ، ولو كان يقتدى ميت أو يفتع حمام ، لتكدست عصب وراء لوانه:-

أبكك لو نفع الغليل بكائي	واقول لو ذهب المقال بدائي
وأعوذ بالصبر الجميل معزيا	لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراتكائنات الدموع وتصاراة	آوى إلى أكرومى وحيائي
كم عبرة موهبتها بأنساملى	وسترتها متجملا بردائي

(١) ولد الشريف الرضى في سنة ٣٥٩ هـ وتوفي سنة ٤٠٦ هـ عن سبع وأربعين سنة . انظر: الشريف

الرضى : حياته وشعره . حسن جعفر نور الدين ص ٦٥

لو كان يدفع ذا الحمام بقسوة
لنكدست عصب وراء لوائى
ويلجأ بعد ذلك إلى الفخر، فيرسم لوحة لهذه العصبية، فهم مدربون على
القراع، تغيأوا ظل الرماح، يمشون وقد لبسوا الدروع فإذا هم كالصخور
الصماء فى الصلابة والقوة، تبرق دروعهم، وترعد صوارمهم، وسط
الغيار ووابل الدماء.

وهو لم يلجأ إلى الفخر لمجرد الميل إلى الفخر، ولكنه يعرف ترصد
الأعداء له، وتربصهم به وشماتتهم فيه، ولذا فهو يبدى التجلد لهذا العدو
، ولو اطلعوا على ما أصابه لشفقت نفوسهم. وبعد ذلك يعود إلى تذكر
حاله، ووصف مآله، لقد فارقه تماسكه وخانه تجلده، ونسى التعزز

والإباء:-

فأرقت فيك تماسكى وتجملى	ونسيت فيك تعزى وإبائى
وصنعت ما نلتم الوفاء صنيعة	مما عراني من جوى البرحاء
كم زفرة ضعفت فصارت أنة	تمتها يتفلس الصعداء
لهفان أنزو فى حبال كريمة	ملكنت على جلادى وغنائى

ومن ثم يعرج على الزمان والدنيا، فقد جرى الزمان على عادته
ومكابدته، فقلب الآمال وعكس الرجاء، لقد كان يود أن يكون الفداء
لأمة، فإذا هى التى تتقدمه، وتفرق القرباء وهذا هو شأن الدنيا للمنع آونة
وللإعطاء، تبادل لك الصفاء تارة، والبغضاء تارة أخرى. مهما طال عمر
الإنسان كروحة الراكب قضاها وجد فى الإسراء. وبعد هذه اللوحة التى
رسمها للزمان، يعود إلى أمة متحدثاً عن عظمة تلك الأم العفيفة الزاهدة

الصائمة القائمة ، أينما قلب بصره وجد فضلها ومآثرها الباقية ، صنائع معروف تقرر نواظره فتطفر العين بالدمع على صاحبة هذه الأيادي . إن هذه الأيادي خلدت تلك الأم وإن رحلت بجسدها .

أنضيت عيشك عفة وزهادة	وطرحت منقلة من الأعماء
بصام يوم القبط تلهب شمسه	وقيام طول الليلة الليلاء
ما كان يوما بالغين من اشترى	رغد الجنان بعشة عثناء
لو كان مثلك كل أم برة	غنى البنون بما عن الأبناء
كيف السلو وكل موقع لحظة	أثر لفضلك خالده بإزائي
فعلات معروف تقرر نواظرى	فتكون أجلب جالب ليكائي
ما مات من نزع البقاء وذكره	بالصالحات بعد في الأحياء

وعند هذا الحد ، وبعد أن اتقى الأعداء بوصف حاله والفخر بقوته ، وبعد أن مدح والدته بما تستحق مؤكدا على أنها باقية بمآثرها ، لم يبق إلا الشاعر ، وإلا المصيبة وجها لوجه مرة أخرى ، ليس فيها عدو ولا دهر ولا بقاء ، ولا يجد الشاعر مرة أخرى إلا الذكريات ، إلا ما كانت الأم تفعله في حياتها من دعاء وحب وعون مادي ومعنوي ، لا يجد إلا مآثر أمه يتنرس بها في مواجهة المصيبة ، فساعة تسعفه هذه المآثر ، وساعة يخز ضعيفا فزعا يتقلب في الظلال كأنها الرضاء :-

فبأى كف استجن وأتقى
ومن الممول لى إذا ضاقت يدي
ومن الذى إن ساورتنى نكبة
أم من يلسط على ستر دعائه
رزاءن يزدادان ، طول تجدد
شهد الخلاق أمها لنجيسة
فى كل مظلم أزمة أو ضيقة
ذخرت لنا الذكر الجميل إذا انقضى
قد كنت آمل أن يكون أمامها
كم آمر لى بالنصر هاج لى
آوى لى برد الظلال كائننى
وأهب من طيب المنام تفرعنا

صرف النوائب أم بأى دعاء؟
ومن المعلن لى من الأدواء؟
كان الموقى لى من الأسواء؟
حرما من البأساء والضراء؟
أبد الزمان: فناؤها وبقيانى
بدليل من ولدت من النجاء
يسدو لها أثر اليد البيضاء
ما يذخر الآباء للأبناء
يومى وتشفق أن تكون ورائى
داء وقدر إن يكون دوائى
فزرع اللديغ نبا عن الإغناء
لتحرقى آوى لى الرمضاء

ويعود الشاعر مازجا المدح بالفخر ، فى محاولة لرفع هذا الكيان
الذى هو وتماسك هذا الجبل الذى انك ، إنهم آباء وأصول هذه الأم ،
الذين نصرروا الحق ، ودعوا إلى الهدى ، وكشفوا الغمة وتستموا الغلياء ،
مع سداد القول والرأى ، رغم شدتهم يرجون تكرما ، ورغم لينهم فهم
يرهبون تخوفا ، لقد ذهبوا مع الذاهبين ، ولكن بعد أن عبدوا طرق العلياء
والرفعة:-

آبائك الغر الذين تفجرت
من ناصر للحق أو داع إلى

بهم يسابع من النعماء
سبل الهدى أو كاشف الغماء

نزلوا بعرة السنام من العلى	وعلوا على الأشباح والأمطاء (١)
من كل مستيق اليدين إلى السدى	ومسدد الأقوال والآراء
يرجى على النظر الحديد تكروما	ويخاف في الإطراق والإغضاء
درجوا على أثر القرون وخلفوا	طرقا معبدة من العلى

والشاعر فى محاولة للتماسك يلوذ مرة بالفخر ، وأخرى بالتأسى بالسابقين ولكنها محاولات وقتية، سرعان ما يقيق بعدها فلا يجد أمامه إلا مصابه، هو هو لم يتغير، ولم يتوار، إنه الموت، إنه القبر، ومن هنا يعود الشاعر للالتحام مرة أخرى مع فجيعته، ويرود نفسه على التصدى لها ، لقد كان خلالها فى الأبيات السابقة يحدث أمه ، يحدث أمه التى كانت وكانت ، والآن وبعد محاولات مضنية للتماسك ، لم يعد هناك من أم ، وإنما هو القبر ، نراه يخاطب القبر: " يا قبر، وبالحال من لحظة يائسة تلك التى أفاق فيها الشاعر من أوهامه وتجسد مصابه أمامه، هو الموت إذن ، وهو القبر لا جدال". يا قبر أمنحه الهوى، إذا كانت الأم قد غابت، فلا يديل من القبر، ولم لا ؟ والقبر يضم بين جوانحه هذه الأم، ليمنحه الهوى ويضمه ويود لو انسابت السماء أمطارا دامعة عليها، هو الدعاء بالسقيا لهذا القبر، فلتجلج الرعود مقتادة مثقلة الغمام، وعذراء السحاب ، لتغذى الجميم بروضة عذراء ، ولكن ما له يوكل سقيا القبر ، ويكل هذه المهمة إلى السماء ، إنه لؤم منه ، أن يكل هذا الأمر إلى السماء

(١) عرعة السنام: رأسه ، الأنياع جمع تيج: من بين الكاحل إلى الظهر، الأمطاء جمع مطا وهو الظهر

، ولم لا يسقى القبر بدموعه؟ ، إن هذا الفيض من الدموع وهذه السحابات
من الأحزان لكفيلة بهذا الأمر .

يا قبر أمنحه الموى وأود لو نزلت عليه دموع كل سماء
لا زال مرتجى الرعود مجلجل هزج البوارق مجلب الضوضاء

يرغو رغاء العود جميعه السرى وينوء نوء المغرب العشراء(١)
يقنأد متقلبة الغمام كأنما يسهطن بالمقدرات والأنقاء
يهفو بها جناح الدجى ويسوقها سوق البطاء بعاصف هوجاء
يرميك بأرقها بأفلاذ الحيا ويغض فيك لطائم الأنيداد(٢)
متحليا عنزاء كل سحابة تغزو الجميم بروضة عنزاء
للؤمت إن لم أسقها جدامعى ووكلت سقياها إلى الأنواء

لقد وصل الشاعر بعد وقفته على القبر إلى مرحلة اليقين والهدوء النفسى ،
لقد ماتت الأم، وها هو القبر، بل ها هي قبور السابقين من قومه، ها هي
قبورهم تملأ الساحة أيضا، وها هو يتحسر على هؤلاء أيضا، ولقد
توزعت المصيبة، أصبحت مصيبة عامة، والبهتاء على هؤلاء القوم،
توسدوا التراب، وكحل التراب جفونهم، وقد كان حريصا على الحفاظ
عليها من القذى لقد قرب الضريح، وتباعدت الأرواح . إن المعروف الذى

(١) العشراء : التى معنى تحملها عشرة أشهر ، والعقدات جمع عقدة وهو ما تراكم من رمل ، والأنقاء جمع نقا وهى القطعة من الرمل

(٢) لطائم الأنيداء : لطائم جمع لطيمة وهو وعاء السك

قدمته هذه الأم هو سميرها وأنيسها، وصالح الأعمال هو الضياء لها فى قبرها . أما هو فلا عيش ولا كئيب، ولا عدد ولا عناء، لم يعد يملك لها إلا الدعاء . فقد كان فعلها يرضى الله ، ورحمته سترضيها وصلاتها المتواصلة قبل الموت ، ستكون صلاة ورحمة من الله . وعندما يصل الشاعر إلى هذه القناعة يقول لها لو كان صفيح القبر يبلغك رسائلنى ، أو يسمعك التراب النداء لسمعت طول تأوّه

وتفجعه، ولكن الصفائح والتراب تحولان دون ذلك وهو منتهمى التسليم

واليقين فى نهاية القصيدة :-

ففى على القوم الأولى غادرهم	وعليهم طبق من البذاء
متوسدين على الحدود كأنها	كرعوا على ظمأ من الصهباء
صور ضمنت على العيون بلحظها	أمت أوقرها من البوغاء (١)
ونواظر كحل التراب جفونها	قد كنت أحرسها من الأعداء
قربت ضرائحهم على زوارها	ونأوا عن الطلاب أى تنانى
وليس ما تلقى بعقر ديارهم	أذن المصيح بما وعين الرائي
معروفك السامى أنيسك كلما	ورد الظلام بوحشة العبراء
وضياء ما قدمته من صالح	لك فى الدجى بدل من الأضواء
إن الذى أرضاه فعلك لا يزل	ترضيك رحمة صباح مساء
صلى عليك وما فقدت صلاته	قبل الردى وجزاك أى جزاء
لو كان يبلغك الصفيح رسائلنى	أو كان يسمعك التراب ندائى
لسمعت طول تأوّه وتفجعى	وعلمت حسن رعايقى ووفائى

(١) البوغاء : القرية الرخوة ، أوقرها : أحملها

كان ارتكاضى في حشاك بـ
وتلمح من خلال القصيدة شدة الفجعة في بداية القصيدة ، ومحاولة التماسك ، ومحاولة الثبات ، حتى يصل إلى قناعة الحقيقة في النهاية ولا يملك إلا الدعاء لهذه الأم . هذا التدرج العاطفى فى القصيدة من بدايتها إلى نهايتها ، والذي بدأ فيه الشاعر عاطفة مضطربة ، تيكى وتتجع وتحاول التصبر وتترس بالجيش والعتاد ، وتفاخر بالحسب والنسب ، حتى تصل إلى القبر فتخف هذه العاطفة وتتوزع المصيبة ، فالموت مسيف مصلت على الجميع ، ولم يعد يملك الشاعر لأمه إلا الدعاء ، ولنينفعها إلا عملها الصالح . وهو تدرج طبيعى يعطى القصيدة وحدة داخلية وربطاً طبيعياً .

أبو العلاء المعرى :

بلغ أبو العلاء المعرى خبر وفاة أمه وهو فى طريقه إليها من العراق ، فكان الوقع مؤلماً ، وراح يبكيها بمعان تفجر الدمع وتستثير النفس ، ومطلعها:

سمعت نعيها صمى صمام وإن قال العواذل لا همام^(١)

^(١) ديوان الشريف الرضى ج ١ ص ٢٦ بيروت دار صادر - سنة ١٩٨٣م

(١) شرح سقط الزند : القسم الرابع السفر الثاني : الدار القومية للطباعة والنشر ص ١٤١٣

والقصيدة تقع في أربعة وستين بيتاً. وهي من بحر الوافر:-
نشئت العاطفة وتجمعها :

وهكذا ترى القصيدة كاملة تعالج من بدايتها إلى نهايتها فكرة واحدة هي رثاء الأب . والشاعر مشغول من أول بيت إلى آخر بيت بالحديث عن الموت ، حديث المسلم به ، المؤكد على أنه لا يسلم منه أحد .

ولا نستطيع أن نضع عنواناً لكل مجموعة من الأبيات ، فهو لم يصف حاله مثلاً وأثر الفجعة عليه ، ثم عمد إلى أمه فمدحها ، ثم ، ثم ، ولكننا هنا نرى اللب الحائر والذهن المشتت ، والفكر المتعثر من حول المصيبة فهو في البيت الأول قد سمع بالمصيبة الكبيرة ، وفي الثاني يعز عليه أن أمه قد سبقته ، وفي الثالث يكبر عليه أن يرثيها اللسان بلفظ يسلك هذه المسالك من طعام وشراب ، فهي أرفع من ذلك . وفي البيت الرابع يتحدث عن أثر المصيبة على نفسه ، فمع أنه يأكل على أسنانه إلا أن مرور لفظ الرثاء يهشمها ويحطمها كأن هذه النواجز قد قذفت بصخر ، وفي البيت السادس يتمنى أن يصوغ من الشهب شعراً يرثيها به .

وفي السابع يصف حاله وينمّه، مع أنها ماتت وقد اكتهل ومع ذلك كأنه رضيع لم يطمع بعد ، وفي البيت الثامن والتاسع ينادى على من يبلغ روحها أرج السلام ذكياً مضمخاً بالمسك والكافور . وهكذا نلمح نشئت

العاطفة مما يرسم صورة واضحة لكائنات هذا التشتت وتعاضده في جميع هذه العاطفة المشتتة وتآلفها لرسم صورة لهذا الشتات .

سمعت نعيها صمى صمام	وإن قال العواذل لا همام ^(١)
وأمنى إلى الأحداث أم	يعز على أن سارت أمامي
وأكر أن يرثيها لسان	بلفظ سالك طرق الطعام
كان نواجذى رديت بصخر	ولم يمرر بمن سوى كلامي
ومن لي أن أصوغ الشهب شعرا	فأليس قبرها سمطى نظام
مضت وقد اكتهلت وخلت أني	رضيع ما بلغت مدى القطام
فيا ركب المنون أما رسول	يلغ روحها أرج السلام
ذكيا يصحب الكافور منه	بمثل المسك مفضوض الختام ^(٢)

□ (٣) اللغة والعاطفة:-

ويسلو أبو العلاء المعري ، ويسوق قصص هذه الحمامة التي حزننت على أخيها ، وهنا نجد لغة أبي العلاء وقد أصبحت عويصة تحتاج إلى تفسير في كل لفظة ، مع أن الأبيات السابقة عليها كانت واضحة غير محتاجة إلى شرح .

(١) صمى صمام : أى لا يسمع لك بذكر والمراد الداهية "صمام" أى سمعت نعيها فأصممت وأوجعت ، وإن قال العواذل ليس منلك ممن بهتم ويحز

(٢) شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثان ص ١٤١٣

(٣) مع إيماننا بصعوبة ووعورة الألفاظ عند المعري إلا أننا نلاحظ الفارق في المستوى اللغوي بين أبيات الرثاء وغيرها

وقد بدأ من البيت العاشر حتى البيت الرابع عشر في سوق تلك
الآبيات الصعبة :-

- | | |
|-------------------------------|----------------------------|
| ١٠- ألا نبهني قينات بث | بشمن غضى فملسن إلى بشام |
| ١١- وهاء العلاط يضيق فوها | بما في الصدر من صفة الغرام |
| ١٢- تداعى مصعدا في الجيد وجدا | فعال الطروق منها بانقصام |
| ١٣- أشاعت قبلها وبكت أخاها | فأضحت وهى خنساء الحمام |
| ١٤- شجنتك بظاهر كقريرض ليلى | وباطنه عويص أى حزام |

ولو رحنا نتجول خلال هذا النص في محاولة لفهمه دون الاستعانة بالشروح لصعب علينا ذلك ولتعثرنا وسط صخوره . ولو رحنا نستقرأ الشروح لعلمنا أنه في البيت العاشر وما بعده : يطلب من الحمايم الحزينة أن تنبيهه إن غفل عن الوجد والجزع حتى يكون شجوه دائما غير منقطع ، فرب مطوقة تزام الوجد في جيدها فأنتفخ وضاق عنه الطوق وانفصم فقد فقدت أخاها وهى تبكى عليه كما بكت الخنساء صخرأ ، هذه المطوقة شجنتك بشعر حسن واضح مفهوم كشعر ليلى الأخيلىة ، وشجنتك بشعر صعب غريب كشعر أبى حزام العكلى ، وشعره كله عويص وكان يكثر من الغريب في شعره فلا يفهمه إلا العلماء ، وكانت تؤخذ عنه اللغة (١) ثم تحدث أبو العلاء عن أمه مرة أخرى فعادت الألفاظ إلى الوضوح والسهولة.

(١) شروح سقط الزند : السفر الثانى : القسم الرابع ص ١٤٢٥

سألت متى اللقاء فقل حتى يقوم الهامدون من الرجام
-ولو حدوا الفراق بعمر نسر طفقت أعد أعمار السمام
فلبت أذنين يوم الحشر نادى فأجهشت الرمام إلى الرمام
وهو في هذه الأبيات يتشوق إلى لقاء هذه الأم ويتمنى أن يكون
الحشر قريباً للقاء هذه الأم. ثم تعود اللغة إلى الوعورة والغاز بمصطلحات
العلوم وذلك في مثل قوله:-

وصرفنى فغيرنى زمان سيعقبنى بحذف وادغام
ويقصد بالحذف والإدغام ، الإزالة والإخفاء فى القبر وقد ذكر ذلك
لتعلقه بالتصريف .

يقول البطليوسى : شبه تصريف الزمان له ونقله إياه من حال إلى
حال بالتصريف المستعمل

ويسلو أبو العلاء المعرى ويسوق القصص ، كما ساقها أبو ذؤيب ،
ولكن ليس بلغة أبى ذؤيب "والدهر لا يبقى على حدثانه ، ولكن بلغة أبى
العلاء المعرى "ولا يشوى حساب الدهر ورد" ويشوى : يخطئ ، والسورد
بفتح الواو : الأسد . وهنا نصبح أمام جبال من الألفاظ وعرة لا تغلت
لفظة واحدة من هذه الوعورة:-

- ١٥- ولا يشوى حساب الدهر ورد له ورد من الدم كالمدام
١٦- يغنيه البعوض بكل غاب فريش بالجمام واللمام
١٧- بدا فدعا الفراش بناظريه كما تدعوه موقدتا ظلام
١٨- بنارى قاذحين قد استظلا إلى صرحين أو قد حى ندام
١٩- كأن اللحظ يصدر عن سهيل وآخر مثله ذاكي الضرام
٢٠- تطوف بأرضه الأسد العوادي طواف الجيش بالملك الهمام

وليست هذه هي القصة الوحيدة التى ساقها لهذا الأسد وإنما يتبعها بقصة أخرى وذلك فى قوله:-

ولا مبق إذا يسقى صدوعا غوائر فى الذكادك والإكام

"لا مبق" معطوف على "ولا يشوى حساب الدهر ورد" أى ولا مبق و"مبق" هى الحية الذكر كثيرة السم ، صدوعا" أى تصدع الأرض وتشققها، والغوائر : دواخل، والذكادك جمع دكدك وهى أرض مستوية فيها رمل .

والمعنى أنه لا يبقى على حدثان الدهر أسد ، ولا حية إذا مشت أبقت فى الأرض صدوعا وآثارا . ويسوق قصة هذه الحية الرهيبة ، وكيف أنها تبقى على حدثان الزمن ، ويستمر فى سوق القصص بهذه اللغة البالغة

الصعوبة ، الموزونة في التوسع والتبدي حتى يصل إلى البيت التاسع والخمسين فيتحدث عن أمه في خمسة أبيات يختم بها قصيدته وعندها ترجع الألفاظ إلى السهولة والبرقة :-

- ٥٩- ولو أن النخيل شكير جسمي ثناء حمل أنعمك الجسم
٦٠- كفاني ربيها من كل رى إلى أن كنت أحسب في النعام
٦١- وكم لك من أب وسم الليلي على جبهاتها سمة اللثام
٦٢- مضى وتعرف الأعلام فيه غنى الوسم عن ألف ولايم
٦٣- سقتك الغاديات فما جهام أطل على محلك بالجهام
٦٤- قطر كالبحار فلست أرضى بقطر صاب من خلل الغمام^(١)
على أن لأبي العلاء قصيدة أخرى يتفجع فيها على أمه وفقدته لها ، وهي من بحر الطويل ومطلعها :-
خلو فؤادي بالمودعة إخلال وإبلال جسمي في طلائك إبلال^(٢)

(١) شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثاني ص ١٤٧٤

(٢) شروح سقط الزند : القسم الرابع : السفر الثاني ص ١٦٨٥

وتقع هذه القصيدة في عشرة أبيات ، يقول بعد هذا البيت :-

- ٢-ولى حاجة عند المنية فتكها بروحى والأهواء مذ كن أهوال
- ٣-إذا مت لم أحفل أبالشام حفرة حوتنى أم ريم بريمان منهال^(٢)
- ٤-على أن قلبى أنس أن يقال لى إلى آل هذا القبر يدفنك الآل
- ٥-دعا الله أما ليت أبى أمامها دعيت ولو أن الهواجر أصل
- ٦-مضت وكأنى مرضع وقد ارتقت بى السن حتى شكل فودى أشكال
- ٧-أرأنى الكرى أبى أصبت بناجذ ألا إن أحلام الرقاد لضلال
- ٨-أجارحتى العظمى تشبه ساهيا يبين لها فى ساحة الفم أمثال
- ٩-وبين الردى والنوم قريى ونسبة وشتان برء للنفوس وإعلال
- ١٠-إذا نمت لاقيت الأحبة بعدما طوتهم شهور فى التراب وأهوال

وهو يقول فى هذه الأبيات :-

خلو فؤادى من الوجد والهوى لإخلال بالمودة ، والكاف "فى طلائك" خطاب لأمه، والمعنى إيلاء جسمى فى طلبها كالإبلال ، والشفاء عندى لمحبتى هذا السقم واستغذابه . ولا يخفى ما فى البيت من جناس فى إيلاء

^(٢) ريم : فخر ، ورعيان : اسم جبل ، منهال : من هلت التراب

وإيلال . والبيت الثاني متعلق بالأول ، هو يحس بالراحة فى السقم ، كأن له رغبة عند المنية أن تفتك به ، والأهواء مركب للأهوال ، تهلك من يتعرض لها ويطلبها ، وواضح أيضا الجناس بين الأهواء والأهوال .

وما احتقالى بالمكان الذى أموت فيه إذا مت ، يستوى عندى أن تكون حفرتى بالشام أم قبر بجبل "ريمان" منهال ترابه ، يتساقط ولا يتماسك وقد كرر أبو العلاء هذا المعنى فى قوله:-

فلا بيبك مكى لفقد حجونه بكل مكان مصدع وحجون

والتجنيس واضح أيضا فى هذا البيت فى "ريم" ، و "ريمان" .

والبيت الرابع مرتبط بالثالث ، يقول فيه : أننى وإن كنت لا أبالى حيث مت ولا فى أى موضع دفنت لتساوى بقاع الأرض وكون بعضها شبيها ببعض فإن لى أنسا واختيارا فى أن يدفنى أصحابى ويكون قبرى بين أهلى وأقاربى وبين "الآل" بمعنى الشخص و"الآل" بمعنى الأهل جنس تام ، وفى البيت الخامس يسوق متألما خبر موت أمه ، لقد دعاه الله فلبست النداء ، فليتتى وقيتها بنفس وتقدمتها وكنت سابقا لها ، مهما كان حظى من الدنيا "ولو أن الهواجر آجال" فإنى لن أسف على ما يفوتنى من هذه الدنيا مهما حلت وطابت .

ثم يلتفت في البيت السادس إلى أثر فقد أمه عليه ، فمع أنها قد مضت وهو في سن الكهولة إلا أنه قد ارتد طفلاً رضيعاً.

ويشير في البيت السابع إلى أنه قد رأى في المنام أنه قد سقطت نواجذه وكان تأويل ذلك فقد أمه ، وهو دليل على أن أحلام الرقاد ضلال ، ليخلص في البيت الثامن إلى توضيح هذا الضلال ، فكيف يمثل فقد الأم بسن لها في الفم أمثال؟

وفي البيت التاسع والعاشر يوضح الصلة بين النوم والموت والافتراق، بين براء النفوس وإعلانها ، ثم يوضح أن نومه أو موته هو الذي سيشفى نفسه لأنه سيلقى الأحبة ، بعد ما طوتهم في التراب شهوياً وأحوالاً.

ابن سنان الخفاجي :-

يقول ابن سنان الخفاجي في رثاء أمه:-

أبكيك لو نهضت بحقك أدمع	وأقول لو أن النوائب تسمع
لا يغبطن على البقاء مرزاً	إن المودع إلفه لمودع
قبحا ليومك فالنوائب بعده	جلل وكل زينة لا تفجع
لو كان ينفعني السلو نبرته	أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع
عجبا لمن يبقى ذخائر ماله	ويظل يحفظهن وهو مضيع

ولعافل ويرى بكل نية
يا قسر فيك الصالحات دفينة
ويا أرضه إن ينكشف بك بديره
ملقى له بطن الصفائح مضجع
أفما تضيف بمن أو تصدع (١)
فما برحت في الأرض تكسف أقمار

ابن سناء الملك (٢) يرثى أمه:-

رثى ابن سناء الملك أمه في قصيدة وصلت أبياتها إلى تسعة وستين .

ومطلع هذه القصيدة:-

صح من دهرنا وفاء الحياء
فليطل منكما بكاء الوفاء

والقصيدة من بحر الخفيف .

وقد بدأها الشاعر بمخاطبة عينه بأن تحل وكاء البكاء وأن تهين
الدموع سكبا وهطلا ، وتهجر النوم وتمنحه لهذا الصب الذي ينادى من
يعيد الكرى ، ثم يعلن سبب هذا البكاء ، فقد رماه الزمان بخطب ودهاء
بما صيره حزينا كئيبا يرى الغناء نواحا والنواح مثل الغناء:-

(١) أنظر عصر الدول والإمارات ص ٧٣٣ وله ديوان مطبوع بالمطبعة الأنسية ببغوت ، وفوات الوفيات ٤٨٩/١ .

(٢) ابن سناء الملك: من شعراء مصر في القرن السادس للهجرة ، ولد في القاهرة سنة ٥٥٠ هـ يقول عنه د شوقي ضيف
"لا يبالغ إذا قلنا إن هبة الله بن سناء الملك أكبر شاعر عرفته مصر في القرن السادس للهجرة: انظر الفن ومناهجه في الشعر
العربي من أعظم شعراء مصر في القرن السادس الهجري ، وقد برع في الرثاء، ورثى أباه وله نذب رائع فيه "شهر دموعه
وتسكب وهو يذخر تقواه ونسكه ذكرى ممضة وما زال يندبه ويكيه قائلا:-
دار المعارف ن الطبعة العاشرة ص ٤٩٤

صح من دهرنا وفاء الحياء فليطبل منكما بكاء الوفاء
ولين ما عقدناه من الصبر بأن تخلصا وكاء الكفاء
وأهينا الدموع سكبا وهطلا وهبا أنمن مثل الحياء
وامنحا النوم كل صب ينادى من يعير الكسرى ولو بالكراء

وبعد ذلك بصور الشاعر حالته بعد أن دهمته هذه الداهية ، فقد أنلخت
ركائب الهم على قلبه ، وقضى عليه بالنحيب طوال عمره ، ثم يتحدث عن
هذه الأم ، فهي لم تزل تزيل البلاء وتدفعه عنه ، **والتي بعض**
جودها وجوده:-

أى عذر لدهرنا إذ دهان بمصاب ألم فيه دهاني
وأراق البلاء قد حل منه بالى لم تزل تزيل بلائى
والتي بعض جودها لى وجودى والتي من حياتها حبيبانى

ويمزج المدح بالفخر بها وبنفسه:-

قد تفتت مذغدت لى أصلا أنى متمر فنون العلاء
يعذر الناس من تكون له أما إذا ما إزدهسى على الآباء
ويرون الصواب أن تنسب الأو لاد لا للرجال بل للنساء

ويأتى بصورة مفتعلة فيها من المبالغة ما يجعله مدانا من الناحية
الشرعية ، فهو يصور كثرة حسناتها ، لدرجة أن كاتب اليمين أصابه
الكلل والمال وراح يغفل تسجيل بعض الحسنات من الإعياء والتعب .
أتعبت كاتب اليمين فكهم أغ فل إتيافا من الإعياء

ومن الصور المبالغ فيها أيضا تمنيتها الموت رغبة فى الاختباء وهو تحليل
سخيف

كم تمنى قرب النية دهرا	رغبة فى الخياء والاختباء
وقد وردت الكلمة العامية "ياما"	بمعنى كثير ، وذلك فى قوله :
لطف نفسى عليك ياما بقلبي	منك يا طول حسرتى وعنائى .

ويرى الشاعر أنه لا مبرر لتغيظه من الدهر ، فالدهر مثله قد أضير
بسبب وفاة والدته ، فقد أصبح قليل الضياء مما أصابه من فقدها :-

إن غيظى على الزمان جهل	هو مثلى يصاب بالأرزاء
قد دهاه من فقدها ما غدا من	ها قليل البها قليل الضياء

ويؤكد أن شعره قاصر عن رثاء هذه الأم ولو صاغه من الثريا ففى
ضميره ما يقصر هذا الشعر عن إبرازة:-

أنت عندي أجل من كل تأبين ولو صغت بالثريا رئائي
في ضميري ما ليس يبرز شعري لا ولو كنت أشعر الشعراء

ويوجه إلى مخاطبة القبر ، وقد ضم السني والسناء والبدر داعيا إياه
أن يترفق بها ، فقد حوى من الطهر ما جعله يحاكي مسجد قباء ، ولذا قل
حجه وهجرته ولعن فيه الثناء والمدح والدعاء:-

فاحفظ أيها الضريح ببدر صرت من أجله كمثل السماء
وترفق به فبانك تسدي منه حجة إلى العلياء
أنت عندي لما حوت من الطهر ربحاكيك مسجد بقباء
لك حجي وهجرتي ولن في لك ثنائي ومدحتي ودعائي

ثم يتجه إلى أمه طالبا منها أن تشفع له يوم القيامة لئلا يعد في
الأشقياء ، فالجنة تحت أقدامها:-

أذكريني يوم القيامة يا أم مد لئلا أعد في الأشقياء
واشغعي لي فجنحت تحت أقدام لك من غير شبهة وامتراء

وأخيرا يختم قصيدته بالدعاء أن يعجل الله له اللقاء بأمه فالحياء
مثل الداء والموت هو الدواء:-

عجل الله راحتي من حياتي إنما في الزمان أعظم دائي
وإذا ما الحياة كانت كمثل الداء ء كان الممات مثل الدواء (١)

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٦

الرثاء وتصنع ابن سناء الملك:-

كان ابن سناء الملك يميل إلى السهولة في شعره ، مع تحليلته بألوان التصنيع^(١) وتلاحظ هنا في قصيدته إصراره على الجناس والطباق في كل بيت تقريبا ، فلا يخلو بيت من محسن بديعي .

في البيت الأول جناس بين وفاة ، وفاء وفي البيت الثاني طباق بين "عقدنماه" ، "وتحلا" وفي الثالث جناس بين "هبا" ، "وهباء" ، وفي الرابع جناس بين "الكري" ، "والكراء" ، وفي الخامس جناس بين "خطب" ، "خطباء" ، وفي السادس جناس بين "أعزاء" ، "عزائي" ، وفي السابع طباق بين "غناء" ، "توايح" ، وفي التاسع جناس بين "تحبي" ، "تحبه" ، ونلاحظ أن البيت الثامن قد خلا من المحسن البديعي ، وقد علق شارح الديوان على هذا البيت أنه غير موجود في النسخ الأخرى ، في البيت ١٢ جناس بين فناءى و "تثاى" ، وفي البيت ١٤ جناس بين سماء ودماء ، وفي البيت ١٥ جناس بين البلوى والنعماء ، وفي البيت ١٦ جناس بين دهانى ودهائى .

وهكذا إلى نهاية القصيدة كل بيت لا يخلو من محسن من هذه

المحسنات ومن هذه المحسنات ما جاء طبيعيا دون تصنع مثل قوله:-

والقى بعض جودها لى وجردى	والقى من حباها حوبائى
قد تيقنت مذغذت لى أصلا	أننى مشر فون العلاء

^(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربى ص ٤٩٦ ، الطبعة العاشرة

ومنها المتكلف وهو كثير ومثاله:-

وليبن ما عقدتماه من الصبر بأن تحللا وكاء البكاء
فقد اضطر من أجل الطباق بين عقدتماه وتحللا ، أن يجعل للصبر عقدا
ورباطا ، وأن يجعل للبكاء وكاء .

وكذلك في قوله:-

وأنا خت ركائب الهيم في قلبي ولم تحشم لظول السواء
ثم آلت ألا تفارق ربعي وفناءى إلا عقيب فئالي

فقد أراد أن يطابق بين فناء الدار والفناء بمعنى الانتهاء ، فزاد بعد
الربيع كلمة "وفناءى"

وقوله:-

وأرادت حجب الثرى ليت شعري من دعا للثرى بهذا الثراء
فقد أراد أن يطابق بين الثرى والثراء ، مع أنه لو قال : " من دعا
للثرى بهذا الدعاء . أو الهناء لكان أجدى لأنه ليس هنا ثمة ثراء وإنما هنا
مكانة ورفعة وطيب ونور . ولكنه القصد المتصنع إلى الطباق " .

وقد أثر ولوعه بمصطلحات العلوم وتضخيمها في شعره على هذه القصيدة ، وهو يقول:-

فهي في الميتين بحسب حقا ومجازا يعد في الأحياء

كشاجم^(١)

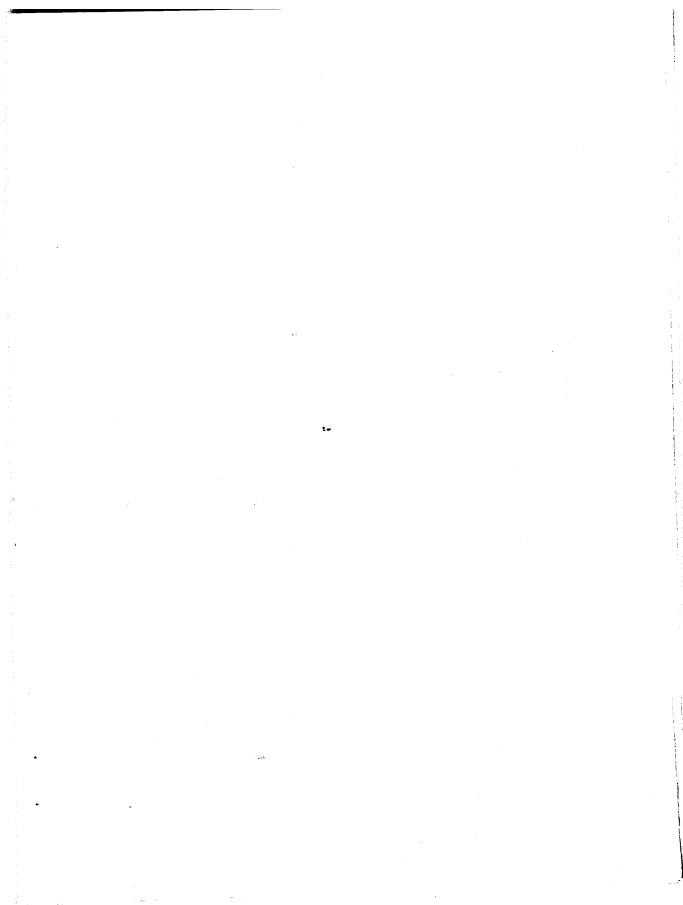
وأبو الفتح كشاجم من شعراء الطبيعة ، وقد رثى أمه بتلك الأبيات التي يصور فيها رفضه للراحة وللعيش الظليل بعد فقد أمه، وأنه سيقابل إرضاعها له في الصغر بإرضاع قبرها من دمه:-

أبعد مصاب الأم ألفي مضجعا وآوى إلى خفض من العيش أو ظل؟
سترع عيني قبرها من دموعها بما كلفته من رضاعي ومن حلي

ويرسم صورة ظريفة فيجعل موتها قبله فيه سلامة من الشك وإحساسها به ، ويصور ذلك فيقول:-

فأقسم لو أبصرني عند موثي وعين تح الدمع سجلا على سجل
رثيت لعضل بأخذ الموت جفنه وأعجبت من فرع يوح عني أصل
يسهون ممن وجد وليس فسين سلامتها بالموت من جرعة النكل
وكان عليها أن أقدم قلبها أشد وأدهى من تقدمها قلبى
فقد فديت من غمها في بحري عليها وفيما بين ذلك ما يسلى^(٢)

(١) أبو الفتح عمود بن الحسين السدي ، المعروف بكشاجم ، كان يعمل منجما ورئيسا للطباخين في بلاط سيف الدولة ، قيل أنه هو الذي نحت هذا القلب دلالة على نواحي فضله ، فالكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب، والهم من حواد ، والميم من منجم. توفي كشاجم سنة ٣٥٠ هـ وقيل سنة ٣٦٠ هـ. ينظر في ترجمته: شذرات الذهب ، لابن العماد ٣: ٣٨٠ ، وله ديوان حققه د/نبوي عبد الواحد شعلان ، مطبعة الخافجي.
(٢) ديوان كشاجم : تحقيق د/ نبوي عبد الواحد شعلان مطبعة الخافجي طبعة أولى





الفصل الأول
دراسة موضوعية



الدراسة الموضوعية

حفلت قصيدة الرثاء في أدبنا العربي الحديث بفيض من العاطفة، مما جعل الموضوعات تتشقق وتتفرع ، وقد سلك كل شاعر في التعبير عن عاطفته مسالك شتى ودروب عديدة ، ربما اتفقت هذه الدروب وتلك المسالك عند بعض الشعراء ، وربما تفرد أحدهم بمسالك أخرى .

ومن هذه الموضوعات التي اشترك فيها الشعراء :-

المدح :-

من الطبيعي أن يلتفت الشاعر إلي أمه وهو يرثيها، فيتحدث عن أفضالها وصفاتها ويعدد هذه الصفات ، فالمدح في قصيدة الرثاء تعداد لخصال المرثية مع فارق بسيط ، وهذا الفارق مع بساطته مهم جداً، فالشاعر لا يمدح تلك الأم ويعدد صفاتها و محاسنها ليعرف الناس تلك الأم بعينها، ويعرفوا فضلها ودورها، كتعداد محاسن زعيم أو عظيم ليسجل للناس فضله، في رثاء الأم لا يقصد الشاعر ذلك ، وإنما هو يبكي في أمه هذه الصفات ، فهو لم يفقد جسداً، وإنما فقد تلك المعاني السامية المتجسدة في هذه الأم ، مع اعتراف البحث بأن بعض الشعراء قد عددوا محاسن الأم بقصد الافتخار وتعريف الناس بقدرها وفضلها .

فمن هذا اللون الذي يفتخر به الشاعر وهو يمدح تلك الأم قصيدة
شوقي في رثاء أمه :-

لئن فات ما أملت من مواكب	فدونك هذا الحشد والموكب الضخما
رثيت به ذات التقى ونظمته	لعنصره الأذى وجوهره الأسمى
نمتك مناجيب العلا ونميتها	فلم تلحقني بنتا ولم تسبقني أما ^(١)

والشاعر هنا يمدح تلك الأم بأرومتها وعنصرها الطيب وبهؤلاء
الأجداد العظام الذين هم بالضرورة أجداده . وعنصر الفخر بالأصول
والجدود عند شوقي تكرر في رثاء الشاعر لجده أيضا ،
وذلك عندما قال :-

^(١) ديوان أحمد شوقي جـ ٢ ص ٥٣٦ . توثيق وتبويب د / أحمد الحوي دار مكتبة مصر

صلاة الله يا تماراز تجزى	ثراك عن التلاوة والصلاة
بررت المؤمنات فقال كل	لعلك أنت أم المؤمنات
وكانت في الفضائل باقيات	وأنت اليوم كل الباقيات
تبناك الملوك وكنت منهم	بمنزلة البنين أو البنات
يظنون المناقب منك شتى	ويؤون التقى والصالحات
وما ملكوك في سوق ولكن	لدى ظل القنا والمرهفات
عننت لهم بمورة بنت عشر	وسيف الموت في هام الكماء
فكنت لهم وللرحمن صيدا	وواسطة لعقد المسلمات
تبع محمد من بعد عيسى	لخيرك في سنك الأوليات ^(٢)

ونلاحظ هنا أن شوقي يفتخر بهذه الجدة، وهو معنى ببيان أنها لم تؤسر عن رق، وإنما وقعت أسيرة في الحرب، فهي سائلة رجال شجاعان، وأن أسرها كان نعمة لدخولها في الإسلام، وشوقي وهو يعارض المتنبي ويتبع خطاه في رثاء جدته، راح يقلده في الفخر بجدته، وهو يتحدث عن نفسه وعن الجدة، ففخر بهما وبأصولهما وجدودهما، وفخر بنفسه بعد ذلك. فإذا قال المتنبي عن جدته.

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أما

(٢) ديوان أحمد شوقي ج ٢ ص ٤٠٠

قلده شوقي في رثاء جدته وذلك عندما يقول :-

ولم لم تظهر في العرب إلا بأحمد كنت خير الوالدات
* المدح بالتقوى والصلاح :-

ومع عنصر الفخر بالأصول والأجداد في رثاء شوقي لجدته وأمه فإنه لم يهمل عنصر المدح بالتقوى والصلاح والصلاة ، فصلاة الله تجزيها عن صلاتها وتلاوتها للقرآن وعن هذا العمر المديد التي قضته في الإحسان والبر .

وكذلك نجد خليل مطران في رثاء جدته لأمه ، تلك القصيدة التي عنوان لها بقوله (الجددة هي سيدة فاضلة حسية نسبية ، بلغت المائة من عمرها وكانت إلى أيامها الأخيرة تكسو مما تحوكة وتوشيه حفداءها الكثرة) والتي يقول فيها :-

قد كنت أما وزوجا في الناس خير المثال

وما عرفت بغير التقوى وحسن الخلال

لم ينقطع لك جهد في صالح الأعمال

في كل يوم تجد دين آية من نوال

وأنا ببيض أباد تسدى وأنا بمال

وابرة لك فيها آيات سحر حلال

من برك المتوالي^(١)

صرفتها في ضروب

والشاعر يشير إلى خلال هذه الجدة الطيبة التي عرفت بالتقوى وحسن الصفات وواصلت جهودها في الأعمال الصالحة ، ومديد المساعدة بالمال أحيانا ، وبأعمال الإبرة التي يرغب فيها والتي صرفتها في ضروب من البر وكساء النساء والأطفال • وقد نال هو نفسه من هذه الأثواب ما جعله في أبيه زينة:-

لنسوة وعيال

كم حكمت سترا ودفنا

وصغت في سعة الوقت زينة للآل

من ذلك الأفضال

لقد أصبت نصيبا

نسجت لمح اللآلى

ثوب كأتك فيه

نضارتي واختيالي

أعاد لي من فوات

تالله إن أنس لا أنس طيب تلك الأفعال^(٢)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنه راح يذكر لها فضلها في صياغة القصص وحكايتها وهي تصوغ الحقيقة مؤشاة بالخيال الرائع :-

محاسن الأقوال

ولا أحاديث أوعت

(١) ديوان الخليل ج٢ ص٤٤٥

(٢) ديوان الخليل ج٢ ص٥٥٥

في كل وقت لها موقع وفي كل حال
 زانت بديع حالها مضارب الأمثال
 ورائعات الأقاصيص عن عصور خوال
 مما الحقيقة فيه تزهى بثوب خيال^(١)

وقد نجد مدحا عاما لا يقف عند صفة من الصفات بعينها ، وذلك
 كما في قصيدة خليل مطران في رثاء أمه :-
 يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظام النعم^(٢)

كذلك في قول حسن عبد الله القرشي :-
 كنا بظلك ننقى لفح الأعاصر والكروب
 ونرد عادية الزما نبدرك الوافي المهيّب^(٣)

من الشعراء الذين تحدث عن فضائل الأم عامة ، وعن كل أم فهي
 شعره ، ومن هؤلاء الشعراء إبراهيم عبد الفتاح^(٤) وذلك في نهاية
 قصيدته :-

الأم أعظم لفظة رددتها جمعت معان في الحياة سواميا

(١) ديوان الخليل جـ ٢ ص ٥٥٥

(٢) ديوان الخليل جـ ٣ ص ٢٤٧

(٣) ديوان حسن عبد الله القرشي المجلد الثاني ص ٢٤٣

الأم أول من نطقت لها اسمها	وأبوك مهما جل كان التالي (٢)
لفظ نما معناه في أذهاننا	بنموها فقدا عظيما ساميا
لا يسأم الإنسان عن ترداده	طفلا صغيرا أو عجوزا واهيا
مهما كبرت فأنت طفل عندها	تولى حياتك حبها المتواليا
ما فوق حب الأم حب يرتجي	فاحفظ لها الحب العظيم الوافيا
لا خير في الدنيا إذا لم ترعها	أم تحيل العيش فيها هاتيا
الأم تمسح بالحنان يمينها	أحزان من يشكو الزمان العاتيا
هي رحمة الله الرحيم بخلقه	وضياء نجم لم يزل لك هاديا
الأم أيكه نعمة تهدي لنا	أغصانها ثمرا وظلا ضافيا
الأم روح للوجود لطيفة	والجسم لولا الروح يمسي فانيا
الأم قلب الكون ينبض دائما	ليفيده دمه الجديد القانيا

(٢) ديوان ومضات فكر ونبضات قلب . ديوان جديد للشاعر إبراهيم عبد الفتاح طبعة أولى سنة ١٩٩٠م دار الصفا للطباعة والنشر . ص ١١٤ . والشاعر إبراهيم عبد الفتاح من مواليد أغسطس سنة ١٩٠٩م في ديرب نجم شرقية ، وهو خريج دار العلوم العليا سنة ١٩٣٥م واشغل مدرسا وناظرا وموجها للغة العربية بالإعدادي والثانوي وأحيل إلى المعاش سنة ١٩٦٩م . طبع له سنة ١٩٤٧م ديوان " من وحي الدعوة الإسلامية ، وله ديوان " ومضات فكر ونبضات قلب "

للأم أجنحة نواعم ريشها	حضنتك طفلا صاحبيا أو غافيا
وجناح رحمتها احتواك ببره	وحنا عليك قوادما وخوافيا
الأم مثل الأنبياء رسالة	وكجندهم في الصالحات تقاتيا
الأم نبراس يضيئ شعاعه	سبل الحياة فليس يترك داجيا
الأم عين لا تنام مع الدجي	إن بات ليئك ساهرا أو شاكيا
ترعاك طفلا في الحياة وناشنا	ودعاؤها يرعاك كهلا فانيا
في الملعب المحروس رفرح حبها	ورعاك أياما بها ولياليا
هي من سماء الحب أكرم مزنة	سقت الثرى فنما وطاب مجانيا
هي كالربيع كسا الحياة جمالها	وأجل منه على الحياة أماديا
ما من نبوغ بلغت الدنيا له	إلا إليها ينتمي متباهيا
إن تلتمس سببا لرفعة أمة	تبصر مقام الأم فيها عاليا ^(١)

^(١) ومضات فكر ونضات قلب: ص ١١٦

فهذه المقطوعة في الأم ، وإن كانت تشكل في نفسها لوحة رائعة ، إلا أنها مقحمة على قصيدة الرثاء ، ويبدو أن الشاعر نظمها بعد أن نظم قصيدة الرثاء وألحقها بها.

***حنان الأم وعطفها على ولدها :-**

وهو عنصر من العناصر التي طغت على قصيدة الرثاء بالنسبة للأم . ومن الملاحظ أن الشاعر عندما يرثي أمه يتحدث عن فقدته لحنانها وعطفها ويرها ، والدعاء والتطبيب والتعويض . وهذا إن دل فإنما يدل على عظيم عطاء الأم .

ومن النماذج الدالة على ذلك رثاء الشاعر إبراهيم عبد الفتاح لأمه والتي يقول فيها مقدما لقصيدته (عندما صعدت روحها الطاهرة إلى ربها سقط قلبي من أضلعي ورأيتني طفلا في حاجة إلى حنان أمه)^(١)

وهو يبدأ القصيدة مشعرا لنا أنه شيع حنان أمه في الثرى :-

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا	قد كنت يوما من حياتي قاسيا
شيعت فيك حنان أمي في الثرى	ووضعت في الغبراء كنزا غاليا

والقصيدة كلها لحن نازق معبر عن الفقد لحنان الأم وبرها وعطفها ورأيها
ومواساتها :-

أنا لست أنسى منك برا حاتيا	أسو الجراح به ولفظا شافيا
أنا لست أنسى منك رأيا صائبا	ألفى له ما كنت قبل رائيا
قد كنت آسي بالجراح فان أتت	أمي رأيت بها الطبيب الأسيا
يا أم كنت مثالية لسعادتي	وسناك كم أجلي ظلام شقاتيا
مهما علت سني أراتي دائما	طفلا بجنك ضاحكا أم باكيا

وحتى عندما يذهب الشاعر زائرا لقبر هذه الأم فإنه يأمل أن يجد هناك
الحنان والدعة والسكينة التي كان يجدها في حياة أمه ، وهو واثق أن برها لا
يزول يموتها ، وأن حنائها لا ينقضي بسكونها القبر :-

كم جنت مثواك الأخير محدثا	روحا أحب حديثها ومناجيا
استلهم الرشيد الذي عودتني	وأبل في صدري فؤادا صاديا
أحس قلبك بارتياح عندما	آتى ضريحك مستمدا داعيا
أفيض قلبك بالحنان كمهدنا	بجناحه أم صار قلبا قاسيا
حاشا لبرك أن يقل على المدى	حاشا لقلبك أن يرى متجافيا
إني أكاد أحس نبض فؤادها	في قبرها إن جنت أشكو حاليا ^(١)

(١) ومضات فكر ونضات قلب ص: ١١

إن الشاعر يحن إلى حديثها ومناجاتها ، فيروح إلى قبرها يستلهم الرشد ، وييل صدق القلب . فهل تحس هي به ؟ كما يحس بها ؟ هل تحس بارتياح عندما يأتي إلى ضريحها ؟ هل يفيض قلبها بالحنان كالعهد به دائما ؟ حاشا لهذا البر المتدفق أن يقل ، ولهذا المعين أن ينضب بمرور الأيام ، وحاشا لهذا القلب الحاني أن يرى متجافيا . إنه بحس بنبض فؤادها في قبرها كلما جاء يشكو حاله.

ويصور فريد عين شوكه ^(٤) فقده لهذا الحنان والدعاء ، والسؤال عن الطعام والشراب ، والوداع في الرحيل واللقاء في الإياب ، وقد تحول هذا كله إلى تكريات بعيدة فقدما بموت الأم :-

أين منى حناتها يسعد الروح	وينفى عن خاطري كل هم ؟
أين منى دعاؤها بركات	تتوالى من السماء وتهمني ؟
أين منى سؤالها عن طعامي	وشرابي وقيامي ونومي ؟
أين منى حناتها للقاتي	إن تغيب ساعة دون علمي ؟
أين منى وداعها في رحيلي	بالأماني التي تجدد عزمي ؟
أين منى لقاءها في إيابي	بالتهايل حين أهتف باسمي ؟

(٤) الرسالة ص ١٨٧ السنة ١٥ المجلد الثاني

وهكذا يسوق الشاعر كل هذا العطاء اللامتناهي في حله وترحاله
ويقظته ونومه وطعامه وشرابه في صور متلاحقة توحى بفيض الأم
وعظيم حنانها وحديها على ولدها.

ويصور الشاعر سهر الأم على تمرضه والعناية به، وهي تسكب
الدموع ألما وحزنا عليه ، فإذا ما استيقظ حبست الأم دموعها وقابلته
بوجه بفيض بشرا، فهي تتألم من داخلها ولا تريد أن تشعره
بهذا الألم :-

أين منى صدق الفداء إذا ما	مسنى في الحياة أيسر سقم
تسهر الليل وهي حولى ولهى	تذرف الدمع في خفاء وكتم
فإذا ما انتهت فهي تلاقيني	بوجه مستبشر غير جهم
وتروى جواني بأمانى	ى عذاب تنفى ظنوني ووهى
وتصوم النهار عن كل زاد	غير ما يمسك الرماء ويحمى
ومناها لو أنها تفتدينى	بالذى يبتغى الفداء وترمى

إنها لا تططبيه ولا تمرضه فقط، إنها لشدة إشفاقها عليه تتمنى لو
أفقدته بروحها .

ويصور محمد الوراوى تلك اللفتة من الأم على ابنها والحرص
عليه، فهو إذا غاب باتت تتلهف على أخباره ، وسهرت تسائل النجم

الساري في لهفة وحيرة عن ابنها ، وهي تزود عنه الأحداث ، وتجود بروحها إذا افتقر ، وإن مسه سقم لازمته حتى يذهب عنه هذا السقم ، وهي تدارى سقمها حتى لا تحزن ولدها ، ولو استطاعت إخفاء موتها عنه لفعلت ذلك . ويطلق الشاعر زفرة حزن وأسى ورحمة لهؤلاء الذين فقدوا أمهم ، *فلا حنان بعد حنان الأم :-*

فقدت التي كانت إذا شط بى النوى	تسائل عنى في الدجى ساري النجم
وإن ترمني الأقدار منها بحادث	تلقفه عنى على الروح والجسم
وإن تربت كفى تجود بروحها	مخافة ما لم أحتمله من العدم
وإن مسني سقم ثوت عند مرقدى	لزاما فلم تبرحه إلا مع السقم
على أنها والسقم يبرى عذاسها	تحاول أن تخفيه عنى بالكتم
ولو أنها استطاعت لأخفت حمامها	وقد حم إشفاقا على من الضيم
فيا رحمتا للفاقدى أمهاتهم	من الناس مثلى أو من الطير والبهيم
فإن الحنان الحق في الأم وحدها	وغير حنان الأم ضرب من الوهم ^(١)

وترجع الشاعرة وفاء وجدي بالذاكرة إلى الوراء، لقد رحلت الأم، فكأن شيئاً ما كان ، وكأنها ما كانت يوماً ما تعشش على أفرانها، وكأنها

(١) الرسالة : السنة الثالثة ، العدد ١٢٨ سنة ١٩٣٥ ص ٢٧-٢٠ "واماه"

ما كانت دفنا في برد الشتاء ، ومذحة من الله ونفحة طيب علوية ، لقد
فقدوا بفقدنا الرحمة والحب .

ورحلت كأنك ما كنت لنا
عشا للأفراخ المهجورة
وأنتك مـنا كنت لنا
افتنا يتسلل عبـر ليلنا المقرورة
ورحلت كصبح بدده صبح مغتـر
يا وشوشة العصفور على صدر الفجر
يا نـفا نفحة طيب علوية
يا منحة من أعطانا فيك الرحمة والحب
وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب (٢)

* حكمة الأم :-

كثير من الأمهات غير معلمات ، ومع ذلك فهي تنصرف بوحى من الإلهام
وضرب من فطرة الأمومة النقية ، وقد صور ذلك الإلهام وتلك الحكمة كثير من
الشعراء :-

من غير علم تنطقين بحكمة	كالوحي كالإلهام يشرق هاديا
للأم الهام عجيب كاشف	للغيب رننغ الأمور كما هي
إلهامها وحى إله لروحها	تلقاه في الظلمات يهدى الساريا
يا من يغاخر بالعلوم وفضلها	ويرى لها النور المبين الزاهيا

(٢) ديوان : الرؤية فوق الجرح ، وفاء وحدي ص ٣٣ طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٨ م

العلم ليس من المدارس وحدها خذ من حنان الأم علما صافيا
علم بلا قلم يخط وحكمة خشع الزمان أهما وأنصت وإعيا^(١)

يا لها من لوحة رائعة رسمها هذا الشاعر لتلك الأم التي تنطق بلا علم - م إلا هذا الإلهام الذي يشرق بالحكمة ، وهو إنعام عجيب كاشف للغيب ، ولا عجب في ذلك فهذا الإلهام بمثابة الوحي من الله سبحانه وتعالى . ويضع علم هذه الأم بجانب علم المدارس التي يفاخر الناس بها ، هو علم بلا قلم وبلا تعلم ومع ذلك كم خشع الزمان وأنصت ووعى لهذا الإلهام من تلك الأم .

ويصور محمد المراوى "هذه الأمية" التي لا تعضي من قدرها ولكنها ترفعها فوق ذوى العلم :-

وأمية كانت ولكن رأيها لسدى معضلات الأمر فوق ذوى العلم^(٢)

❶ مرض الأم :-

لكل قصيدة رثاء ظروفها الخاصة ، وإذا كانت الأم قد تعرضت قبل موتها لمرض عانت منه وقاست ، فإن القصيدة تحمل هذه المعاناة وتصورها ، وقد مررت أم عائشة بالتهيمورية مرضا شديدا صورته الشاعرة وهي تبكي أمها وهي تسوق ذلك في ألم وتحسر على ما أصاب تلك الأم:

قد خابها الدهر الملم فأصبحت لكؤوس أدمام الضنى تتوجع
ذاقت مرير السقم من عهد الشباب حتى قضت أيامها تتوجع

^(١) الرسالة ص ٢٧- ٢٠ من السنة الثالثة سنة ١٩٣٥م المجلد الثاني العدد

(٢) وأما : محمد المراوى الرسالة :ص ٢٧- ٢٠ السنة الثالثة المجلد الثاني عدد ١٢٨

رحلت وقد أفنى النزيف دماءها والقلب في حسراته يتصدع
 كم من طبيب لم يكل وطالما داوى ولكن داؤها وتفزع
 كم ليلة باتت تساهر نجمه وتئن مما قد حوته الأضالع
 حتى أتى أمر الإله لها ادخلسى لحدا وأمر الله لا يترجع ^(١)

ونلاحظ أن الشاعرة قد عكست ما تعانيه الأم وما تتجرعه من الألم بسبب مرضها ، ولكنها لم تصور لنا أثر هذا المرض وهذا التوجع في نفس الشاعرة .

ويصور المراهق سقام أمه ومرضها ومعاناتها ومع ذلك فهي تكتب للأم حتى لا يراها ابنها فيتعذب لعذابها ويتألم لألمها ، وهذه الأم لو استطاعت أن تخفى موتها عن ابنها لعمت ذلك .

ألى أنها والسقم يبدى عظامها تحاول أن تخفيه عنى بالكتم
 ولو أنها استطاعت لأخفت حماها وقد حم إشفافاً على من الضيم ^(٢)

٦ شكوى الزمان :-

تقول عائشة التيمورية :-

يا منهل التشيت حسبك ما جرى فعيوننا قد أقسمت لا تهجع
 ما بال هذا الدهر يفجع بالأسى ألبابنا ولكم بحزن يفجع ^(١)

^(١) حلية الطراز ص ٣٠

^(٢) الرسالة ص ٢٧ من السنة الثالثة سنة ١٩٣٥م المجلد الثاني العدد

^(٣) حلية الطراز ص ٣٠

والشاعرة تبدأ قصيدتها بالتملص من الزمان وأفعاله ، هذا الدهر الذى يفجع بالأسى ، ولذا فهي تطلب من الدهر أن يكف عن التشيت ، وكفى ما جرى. وكذلك فعل الشاعر أحمد شوقي عندما بدأ قصيدته بشكوى الزمان إلى رب الزمان :

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما أصاب سويداء الفؤاد وما أضمر
وبصارع الزمان و يجالده بقوله :-

زجرت تصاريف الزمان فما يقع لى اليوم منها كان بالأمس لى وهما
وقدرت للنعمان يوما وضده فما اغترت البؤسى ولا غرت النعمى
شربت الأسى مصروفة لو تعرضت بأنفاسها بالغم لم يستفق غمها
فأترع وناول يا زمان فإنما نديمك سقراط الذى ابتلع السمما
قتلتك حتى ما أبالى أدت لى بكأسك نجما أم أدت بها رجما
ومع أن شوقى هنا يفترخ بمجالدته للزمان وأنه لم يعد يأبه به بعد أن عود نفسه على تحدثاته ، فإنه يسوق فى تضاعيف أبياته ما فعل الزمان به ، ويجأر بالشكوى من شربة الأسى من هذا الزمان .

وهو يعزف هذا اللحن للشاكى من الزمان فى رثاء جدته ، مصورا مهد المرء فى أيدي الرواقى بنعش المرء بين النانحات ، والوليد والمعمّر سواء فى أذى الزمان فالدنيا قتال وهم مقاصد لهذا الزمان الذى يرميهم بنوائبه :-

ومهد المرء فى أيدي الرواقى	كنعش المرء بين النانحات
وما سلم الوليد من اشتكاء	فهل يخلو المعمّر من أذاة ؟
هى الدنيا قتال نحن فيله	مقاصد للحسام وللقتاة
وكل الناس مدفوع إليه	كما دفع الجبان إلى الثبات
نروع ما نروع ثم نرمى	بسهم من يد المقدور آتى

ويتمنى الهراوى لو كان الزمان قد توقف به عند أيام الطفولة ، فخطاه
تقودهم إلى النهاية وإلى القطيعة والانصرام :-
ويا ليت لم يقطع بنا الدهر شوطه فإن خطاه للقطيعة والصرم
وهذا الزمان تبنى في صورة ليل مريب تلظى بالرزايا والندوب، فحطم
الأمال وحوّلها إلى أشباح :-

أنت الغد المنشود ها	قد عاد كالأمس الكئيب
وتراعت الأمال أشـ	باحا ليل مريب
ليل تلظى بالشجـو	ن وبالرزايا والندوب

والشاعر البردوني يصور ذاك الزمان الذى خلفته أمه وودعته وهو زمان مملى
بالجور والغي والخراب والسيف والقبلة والحرب ولمع الحراب ، زمان هو القيد
والسوط والظلم :-

تركنتى للشقا وحدى هاهنا	واستراحت وحدها بين التراب
حيث لا جور ولا بغى ولا	ذرة تنبى وتنبى بالخراب
حيث لا سيف ولا قنبلة	حيث لا حرب ولا لمع حراب
حيث لا قيد ولا سـوط ولا	ظالم يطفى ومظلوم يحابى ^(١)

* تمنى الفداء :-

وتمنى الابن فداء الأم من الصور الشائعة في قصيدة الرثاء. فعائشة
التيمرية تتمنى أن تودع روحها مع وداع الأحبة ، وتتمنى أن تفيدهم

^(١) ديوان عبد الله البردوني : المجلد الأول ص ١٣٨

بروحها ولكن إرادة المولى نافذة ، وهى عاجزة لا تدرى ماذا تصنع أمام
إرادة الله:-

ذهب الأحبة واستقل ركابهم	يا ليت روحى ودعت إذ ودعوا
يا ليتهم طلبوا الفداء فهذه	روحى ولكن ليست ليست تنفع
وإرادة المولى تعالى شأنه	حمت لنا هذا فماذا نصنع ^(٢)

ويؤكد هذا المعنى أيضا الشاعر حسن القرشى ، فهو يؤكد أنه
يسخو بالجوانح والقلوب ويبذل روحه يتقى بها بطش الردى:-

لو تفتدين سخا الفدا	ء من الجوانح والقلوب
وبذلت روحى أتقى	بطش الردى عند الوثوب ^(٣)

على أن هناك من الشعراء من تمنى أن يموت قبل هذا اليوم ، وأن
يكون مكان أمه فى القبر:-

لا أطلق الحياة بعد نواها آه ، يا ليت يومها كان يومى^(٤)

وشاعرة أخرى تصور الموت وقد تسلل فى وضح النهار ، وهى ما
درت أن هذا الزائر يأتى فى وضح النهار ، ولو درت ذلك لست بقلبيها
كل ثقبوب النور ، ولتشبثت بالظلام حتى لا يأتى النهار ومعه الموت:-

(٢) حلية الطراز ص ٣٠

(٣) ديوان حسن عبد الله القرشى المجلد الثان ص ٢٤٣

(٤) الرسالة : السنة ١٥ المجلد الثان عدد ٧٤٧ ص ١٨٧

لكن ما عن لنا أن يأتي زائر المَكروه
يتسلل من ثقب في نافذة الظهر
لو أدري أن الظهر يخون
لسددت بقلبي كل ثقوب النور
لتشبتت بساعات الليل الظلماء

بل إن الشاعر لترسم صورة أخرى للفداء وهي مصاحبة الأم في
رحلتها ، فلو أنها وهي تعانقها كانت تدري أن هذا هو عناق الوداع، إذن
لصهرت ضلوعها بين ذراعي أمها ، وعششت بصدرها ، ومضت معها
إلى حيث تكون:-

لو أدري أن عناقك لي في تلك الليلة
كان عناق وداع
لصهرت ضلوعي بين ذراعي وعششت بصدرك
ومضيت إلى حيث تكونين أكون . .
لو أدري ^(٢)

وفي قصيدة الشاعر عبد الله البردوني ، وقد كان مكفوف البصر وكانت أمه هي
التي تطعمه وتسقيه ، وتأخذ بيده في الطريق، جاءت هذه الصور مبهوتة في قصيدة الرثاء

كيف أتسأك وذكراك على سفر أيامي كتاب في كتاب
إن ذكراك ورائي وعلى وجهتي حيث مجيئي وذهابي

^(٢) ديوان : الرؤية من فوق الجرح : شعر وفاء وحدي ص-٣٢

كم تذكرت يديك وهما فى يدى أو فى طعمى وشرابى
 كان يضمنيك نحولى وإذا مسنى البرد فزندانك ثيابى
 وإذا أبكأتى الجوع ولم تملكى شينا سوى الوعد الكذاب
 هدهدت كفالك رأسى مثلما هدهد الفجر رياحين الروابى
 كم هدتتى يدك السممر إلى حقننا فى الغول فى قاع الرحاب^(١)
 وفى قصيدة الشاعر محمد المراهوى ، يجعل الأم غناء عن الأب والأبناء
 والخال والعم :-

فان قلت يا أمه أغنأتى اسمها عن الأب والأبناء والخال والعم
 ويقارن بينها وهى الأمية وبين المتعلمين فيجعل رأيها فوق رأيهم :-
 وأميه كانت ولكن رأيها لدى معضلات الأمر فوق ذوى العلم^(٢)
 وحسن عبدا لله القرشى يجعل من جوائحه وصلوعه سكنا لأمه بدلا من القبر
 ومثنوى لها :-

فى عمق أعماقى برو حى فى الحنايا فى الوجيب
 مثواك يا أمه لا فى ظلمة الجدث الرهيب^(٣)
 وإذا كان جل الشعراء قد دارت أمانيتهم حول فداء الأم ، فإن فريد عيسى
 شوكة يجعل أمه هى التى تود أن تقتليه :-

(١) ديوان عبد الله البرد ون : المجلد الأول ص ١٣٨

(٢) الرسالة : السنه الثالثة العدد ١٢٨ ص ٢٠٢٧

(٣) ديوان حسن عبد الله القرشى : المجلد الثاني ص ٢٤

ومناها لو أنها تفتديني بالذي يبتغي منى الفداء وترمى^(١)
ويرى الشاعر إبراهيم عبد الفتاح نفسه بجانب أمه طفلاً مهما
كبر، ويهدبها دموعاً لا تجف :-

مهما علت سنى أرانى دائماً طفلاً بجنبك ضاحكاً أو باكياً
كم كنت أسأل فى حياتك ما الذى أهدى إليك لكى يبين ولا يـ
أى الهدايا ترتضين أزفها لك كى أكون على الجميل مجازياً
والآن لا أهدى إليك هدية إلا دموعاً لا تجف جوارياً^(٢)
ولا تتحمل نازك الملائكة هذا الألم الذى يعتصرها بفقد الأم ، فتلجأ إلى
التعزى ، ولم تجد لألمها منفذاً غير أن تشخص هذا الألم وتغنى له :-

أفسحوا الدرب له للقادم الصافى الشعور
للغلام المرهف السابح فى بحر الأريج
ذى الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوج
إنه جاء إلينا عابراً خصب المروج
إنه أهدأ من ماء الندير
فاحذروا أن ترحوه بالضجيج
إنه ذاك الغلام الدائم الحزن الخجول
ساكن الأمسية الغرقى بأحزان خفية
والزوايا الغيبية السكون الشفقية
أبداً يجرحه النوح ويضيقه العويل

(١) الرسالة السنته ١٥ سنة ١٩٤٧م المجلد الثانى العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

(٢) ومضات فكر ومضات قلب : إبراهيم عبد الفتاح ص ١١٤٣

فليكن من صمنا ظل ظليل

يتلقاه وأحضان خفية^(١)

وبصور سيد قطب في مراثيه لأمه موقها ، فيجعلها موتا للأب ، فقد كان في وجود الأم غناء عنه (اليوم فقط مات أبي، واليوم فقط أصبحتنا شتيئا منشورا، وإن لأضم اليوم إلى صدرى ابتكما وابتيتكما ، أضمهم بشدة لا ستوثق من الوحدة)^(٢) فقد أحس بال فقد ، أحس بفقد أبيه وأمه ، إنه يضم أخواته إليه لعله يستشعر وجوده ، ويحس بمن حوله ، بعد أن ماتت أمه وأحس بأنه شتيئا منشورا .

وتمر الأيام بطينة ثقيلة على أمنيته قطب بعد موت أمها (أصحح أن ما معنى على رحيلك عنا هو تسعة أيام؟ إذن كيف تمر الشهور والسنوات؟)^(٣)

وينكر عبد المنعم خلاف في رثاء أمه أن تذهب هذه المعاني العلوية إلى التراب وأن يفصل الله بين قلبه وقلب أمه وأبيه إلى الأبد (كلا لن تذهب هذه المعاني العلوية إلى التراب أيها المجانين الملهدون المفكرون للبعث لا بد أن تحيا هذه المعاني ونحيا لها لنذكرها في دار الشرح والتفسير لكل ألعاز الحياة كلا لن يضرب الله بين قلبى وقلبيها وقلب أبى ويفصل بيننا إلى الأبد)^(٤)

وتصور وفاء وجدى الموت في كلمات مركزة ، تختزل فيها ساعات المرض والألم وطلوع الروح (أهات - حشرجة غيبوبة) وتصور الموت على أنه زائر مكروه تسلل

^(١) ديوان نازك الملائكة المجلد الثاني : ص ٣٠٩

^(٢) الرسالة: العدد ٣٨٢ :

^(٣) الرسالة: العدد ٣٨٢ :

^(٤) الرسالة: العدد ٦٥٢ السنة ١٣ .

خلصة بالنهار ، وما كانت تدرى أن القدر يتسلل في أى لحظة (لكن ما عن لنا أن يسأني
زائرك المكروه ، يتسلل من ثقب في نافذة الظهر)^(٩)

ونلمح تفردا عند جملة العاليلي في قصيدة "عيد الأم" وهي تبدأها بقولها " العيد
عاد ولم تعودى " وكأنها تنتظر عودتها في الحقيقة، ومع ذلك فهي تفاجأ بعدم عودتها
ورغبتها في العيد :-

يا من ملأت بها وجودى	العيد عاد ولم تعودى
أين من هممتى تشبىدى	الطير يشدو فى الخمائيل
مستنزفا دمع القصيد	وأرى فؤادى لاهثا
أسعدتها فى كل عيد ^(١)	وتغيب أحلامى التسى

٥ التأسى والعزاء :-

عندما يبكى الشاعر أحدا بعيدا عنه ، غير قريب منه ، فهو يشترك
غيره فى هذا المصائب ، يواسيه ويعزيه ، ويحاول أن يدعوه إلى الصبر
والتأسى بالآخرين ويسوق له النماذج التى ترده إلى الصبر الجميل ،
والحال غير ذلك فى قصيدة الرثاء ، فالمصائب مصاب الشاعر ، وهو
يبكى فجيعته هو ، فهل هو فى حاجة إلى أن يوقف جماع هذه النفس
الحزينة البائسة ، وأن يردّها إلى التصبر والصبر الجميل ، وهل هو

^(٩) ديوان :الرؤية من فوق الجرح ص ٣٦

^(١) ديوان نبضات شاعرة ص ٣٠

بفاعل؟ وإذا فعل فهل هو بقادر على كبح جماح هذا اللب الطائر والنفوس المتزعزعة؟.

الواقع أن كثيرا من الشعراء قد وجدوا في التأسى والعزاء ملأذا ونجاة من التشيت والضياح وعصمة من أن تتناثر هذه النفوس الملتاعة إلى أشلاء من هول الفاجعة. ومن هؤلاء الشعراء الذين أصيبوا في أولادهم فكان ملاذهم التأسى والتصبر، أبو ذؤيب الهذلي وغيره من الشعراء (وكان من عادة الشعراء السابقين أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك والأعزة والأمم السالفة والوعول الممتنعة في قلل الجبال، والأسود الخادرة في الغياض، وحمر الوحش المتصرفة بين القفار، والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها. وذلك في أشعارهم موجود لا يكاد يخلو منه شعر. فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل^(١) ومن الشعراء من رفض هذا التأسى وذاك العزاء، عندما استحكم المصائب وتمكنت الفجعة من النفس، وابن الرومي من هؤلاء الشعراء الذين رفضوا هذا التأسى والتصبر عندما أصيب في ولده:-

وما سرنى أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد
ولا بعته طوعا ولكن غصبت وليس على ظلم الحوادث من معدى^(٢)
والملاحظ على قصيدة رثاء الأم أن كثيرا من الشعراء يحاولون التأسى والتصبر والتماس الأسباب التي تدعو إلى ذلك، فمنهم من ينجح في

(١) العملة: ابن رشيق ج٢ ص ١٥١ دار الجيل الطبعة الرابعة

(٢) ديوان ابن الرومي ج٢ ص ٦٢ تحقيق حسين نصار القاهرة مطبعة دار الكتب سنة ١٩٧٣م

ذلك ، ويستطيع التماسك والصبر ، ومنهم من يزلزل الجزع أركانه ويهدد كيانه.

فمن هؤلاء الشعراء الذين تصبروا بالسابقين ، وبأن الموت كاس محتوم بشره كل
بني البشر، الشاعر أحمد شوقي عندما يقول :-

خلقنا للحياة وللممات	ومن هذين كل الحادثات
ومن يولد يعش ويمت كان لم	يمر خياله بالكائنات
ومهد المرء في أيدي الرواقى	كنعش المرء بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكاء	فهل يخلو المعمر من قذاة
هى الدنيا قتال نحن فيهِه	مقاصد للحسام وللقتاة
وكل الناس منقوع إليهِه	كما دفع الجبان إلى الثبات
نروع ما نروع ثم نرمى	بسهم من يد المقدور آت (٢)

وشوقي قد رثى جدته بهذه القصيدة، وبدأها بالتصبر والتأسى
بالسابقين ، وبأن كاس المنية دائر على الجميع، ولكنه في رثاء أمه لا يبدأ
القصيدة بهذا العنصر ، بل بدأها شاكيا باكيا من عوادي الذوى ، وشاكيا
إلى الله هذا السهم الذى أصاب فؤاده بموت أمه ، ولكن عنصر الألم
والشكوى والبكاء والتفجع الذى افتتح به قصيدته لم يدم طويلا ، ولم يقف
عنده إلا فى سبعة أبيات سرعان ما انتقل بعدها إلى عنصر التأسى

(٢) ديوان شوقي ج ٢ ص ٣٩٨

والتصبر بان حكم المقادير نافذ ، والموت حتم ، وإلى حيث آباء الفتى
يذهب الفتى ، وهى سبيل قد دان بها العالمون منذ القدم :-

ولم أر كالأحداث سهما إذا جرت ولا كالليالى راميا يبعد المرمى

ولم أر حكما كالمقادير نافذا ولا كلقاء الموت من بينها حتما

إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى سبيل يدين العالمون بها قديما ^(١)

وعنصر التأسي والعزاء بان الموت قضاء الله ولا راد لقضائه
موجود فى قصيدة عائشة التيمورية فى رثاء أمها :-

وإرادة المولى تعالى شأنه حتمت لنا هذا فماذا نصنع ^(٢)

وتعزى الشاعرة وفاء وجدى نفسها بان أمها وإن كانت قد ماتت ،
وفقدت بموتها الرحمة والحب ، فإن بين ضلوعها قلب هذه الأم برحمتها
وحبة ووداعته فإن قلب الأم لا يموت :-

وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب

لكن عزائى أنى أملك قلبك

فهنا بين ضلوعى يا أمى قلب الأم ^(٣)

^(١) ديوان شوقي حـ ص ٥٣٣

^(٢) حلية الطراز : عائشة التيمورية ص ٣٠

^(٣) الرؤية من فوق الجرح . وفاء وجدى ص ٣٣ طبعة الفنية سنة ١٩٩٨ م

ومن الشعراء الذين فقدوا هذا العنصر وهو التأسى والصبر ، وسيطر عليهم الجزع والهلع ، محمد الهراوى حين يصور محاولة التماس الحزم والصبر فلا يجدهما وكيف يجدهما وقد ماتت من كانت مصدر الحزم بالنسبة له ؟ وأين مصدر السلوى وقد غاب مثالها فى عينه وطيفها فى حلمه :-

تلمست حزمى فى المصاب فعزنى لقد غاب عنى فى الثرى مصدر الحزم
وأنى لى السلوى وقد حال دونها مثالك فى عينى وطيفك فى حلمى (٢)

ويعلن الشاعر فريد عين شوكة أنه لا صبر ولا عزاء أمام فقد الأم ويرفض لوم اللاتمين له فى بكاء أمه ، وهو يعلن هذا من بداية قصيدته:-

لا تلمنى على بكائي وغمى أي صبر يعين في فقد أمى
أي كنز فقدته في نواها أي خسر أصابني أي غم (٣)

وفى نهاية القصيدة وبعد تعداد خصائصها وتصوير مدى الفجعة فيها يرفض أن يهجر دمه ، ويسأى أن يترك حزنه ويتمنى ألا يعرف الصبر :-

يا لها من فجعة رزأتها فى سجايا عظيمة أي عظم
أيها الحزن لا عدمتك حتى تسحق النار فى أتونك عظمى
أيها الدمع لاهجرتك حتى ينزف القلب فى انسكابك دمسى
أيها الصبر لا عرفتك حتى يستوى فى جوار أمى جسمى (١)

(٢) الرسالة: السنة الثالثة سنة ١٩٣٥ م العدد ١٢٨ ص ٢٠٢٧

(٣) الرسالة : السنة ١٥ سنة ١٩٤٧ م العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

ومن الشعراء الذين رفضوا العزاء أيضا ووجدوه جمرا يكوى
فؤادهم المكلول، فلا الرثاء يخفف عنه، ولا كلمات العزاء تواسيه ، بل إن
كلمات المواساة لتسيل دمه، الشاعر إبراهيم عبدالفتاح حين يقول :-

أعلى الكنوز دفنتها في حفرة	ورجعت مكلول الجوائح داميا
أجد العزاء من المعزى لأذعنا	كالجمر يسقط فوق قلبي كاويا
إن يحبس الذمغ الحياء أسالسه	من جاء بالقول الجميل مواسيا
راحت وقد وخط المشيب مفارقي	فرأيتني كالطفل يصرخ باكيا
قالوا تخفف بالرثاء تصوغه	كم كان شعرك بالجراح مداويا
فأجبت أجمني الأسى لم يستطع	قلبي المحطم أن يصوغ مرانثيا ^(١)

وهكذا وجدنا تنوع الشعراء أمام الحدث ما بين جازع هلع رافض
للصبر والتأسي، وما بين متماسك يحاول التأسي والتصبر.

❖ الدعاء للألم :-

من قديم الزمان وقصيدة الرثاء تحمل معاني الدعاء بالفاط شتى وبصور
متعددة وأكثر الدعاء بالسقيا لهذا القبر، وبالرحمة للميت، وإذا كان الدعاء بالسقيا
قد كثر في الجاهلية، فمن الغريب أن يبقى الدعاء بالسقيا للقبر إلى يومنا هذا في
العصر الحديث :-

(١) الرسالة : السنة ١٥ سنة ١٩٤٧م عدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

(٢) ومضات فكر ونضات قلب : إبراهيم عبد الفتاح ص ١١ دار الصفا للطباعة طبعة أولى سنة ١٩٩٠م

وقد جمعت عائشة التيمورية في رثاء أمها بين الدعاء بالرحمة وبين السقيا للقبر :-

يأرب فاجعل جنة المأوى لهما دارا بطيب نعيمها تتمتع
واسكب على حصبتها سحب الرضا فضلا وإن تك قد سقتها الأدمع ^(١)
وقد يتوجه الشاعر إلى ربه مستودعا إياه تلك الودعة الغالية ، طالبا من الله
أن يسكنها الجنة :-

رباه ثم وديعة في ظل يرزحك العجيب
حظها برحمتك القريب بة أنت علام الغيوب ^(٢)
وربما أوجز الشاعر الدعاء ، وأعلن أنه سيذوق لها سائلا الله أن
يقبل هذا الدعاء :-

والآن لا أهدى إليك هديعة إلا دموعا لا تجف جواريا
ودعاء قلب قد عرفت وفاءه والله أسأل أن يجيب دعائيا ^(٣)
ومع ذلك فقد خلت قصائد كثيرة من الدعاء ، وكان الشاعر يتأني على الفقد
والغياب ويرفض الاستسلام للواقع ويتحدث كما لو كانت أمه موجودة ، أو غائبة
وستعود يوما ما ، ومن هنا فقد خلت قصيدة أحمد شوقي ومطران وعبد الله السرد ون
غيرهم من هذا الدعاء.

^(١) حليه الطراز ص ٣٠

^(٢) ديوان حسين عبد الله القرشي ج ٢ ص ٢٤٣

^(٣) ومضات فكر ونبضات قلب ص ١١٤

⑥ وقفة الشعراء على القبر :-

يشغل المكان الآخر الذي تذهب إليه الأم بعد موتها، أو المئوى الأخير الذى يسوى فيه الجسد، يشغل حيزا كبيرا فى قصيدة الرثاء. فمن الشعراء من يقف بهذا القبر أو مخاطب أمه من خلاله، ومن هؤلاء الشعراء عائشة التيمورية التى راحت تخاطب القبر الذى يضم هذا الرفات الغالي وتلك الدرة اليتيمة. وهى تبدأ قصيدتها بهذا النداء لهذا القبر بان يهنا بمن نزلت فيه ، وثبت بين/ركانه:-

يا قبر فاهنا بالتي أحرزتها هي درة في الدرج لاحت تسطع^(١)

ومن الشعراء الذين عرضوا للفكرة نفسها، وهى أنهم أودعوا كثرًا غالبا في الترى، الشاعر إبراهيم عبد الفتاح ، فقد وقف مرة وهو يرثى أمه على قبرها ، وراح يحدث روحها ويناجيها ، ويستلهم الرشد الذي عودته إياه ويبل فؤاده الصادي ومع إحساسه بالراحة، فإنه راح يتساءل هل يحس قلبها بالراحة عندما يجيئها داعيا ؟ هل يفيض قلبها بالحنان كمعهده دائما ؟ أم ترى تحول إلى القسوة وحاشاه ذلك. ثم يجيب هو، حاشا لبرها وحانها أن ينقص ، وحاشا لقلبها أن يرى متجافيا ، فهو يحس بنقص فؤادها في قبرها عندما يأتيها شاكيا :-

كم جنت مثواك الأخير محدثا	روحا أحب حديثها ومناجيا
استلهم الرشد الذى عودتسى	وأبل فى صدرى فؤادا صاديا
أحس قلبك بالحنان كمعهدينا	بحنانه أم صار قلبا قاسيا
حاشا لبرك أن يقل على المدى	حاشا لقلبك أن يرى متجافيا
إنى أكاد أحس نبض فؤادها	فى قبرها أن جنت أشكو حاليا ^(٢)

(١) حليه الطراز: ص ٣٠

ويقف الشاعر مرة أخرى على القبر في قصيدة أخرى يسميها بهذا الاسم (وقفه على ضريح والدتي الحبيبة) يعلن من بداية القصيدة أنه يعي تماماً أنه ليس بالقبر غير رمام، وأن روحها الكريمة قد ارتقت إلى السماوات العلى في علين، ولكنه يؤمن كذلك بأنه كلما زار هذا القبر كلما أتت روح أمه كأنه معها على موعد، لا يستري ولا يشك في ذلك يصورها رغم الفناء أمامه، يلقي عليها السلام وترد عليه السلام، إذا امتلأت نفس امرئ بحبيبه، رآها عياناً عند كل مقام، إنه يجيب إليها في لحظة لحناها، كأنه رضيع ما بلغ الفطام بعد:-

أعودها في قبرها لأزورها	وليس بهذا القبر غير رمام
ولكنها تأتي إلى القبر كلما	وقفت به السروح ذات دوام
لقد طارت روح الكريمة وارتقت	إلى منزل فوق النهي متسام
أخاطبها لا أمتري في جوابها	وأبصرها رغم الفناء أمامي
والقى على أمي السلام تحية	فأسمع رغم الصمت رد سلامي
وإني أراها ملء عيني دائماً	وأبصرها في يقظتي ومنامي
وإذا امتلأت نفس امرئ بحبيبه	رآها عياناً عند كل مقام
رآها بعيني قلبه رؤية المنى	فيرتاح قلب في الفجعة دام ^(١)

ويصور كيف أنه أودع كنزا غالياً في الثرى :-

شيعت فيك حنان أمي للثرى	ووضعت في الغبراء كنزا غالياً
أغلى الكنوز دفنتها في حفرة	ورجعت مكلوم الجوائح داميا ^(٢)

(٢) ومضات فكر ونبضات قلب ص ١١٦

(١) ومضات فكر ص ١٧٠

(٢) ومضات فكر ص ١١٤

ومن الشعراء من نظر إلى القبر نظرة جامدة محايدة، فهو صامت، وهو قبر، وهو فقير:-

حيث أدعوها فلا يسمنى
و هو جدث رهيب مظلم :-
غير صمت القبر والفقر الباب (٣)
فى عمق أعماقى برو
فى الحنايا فى الوجيب
مثنواك يا أمـه لا
فى ظلمة الجدث الرهيب (٤)

٥ أثر فقد الأم فى الأبناء:-

يشكل فقد الأم عند الأبناء جرحا داميا ينزف ، ودمعا يهطل ، وقد عبر الشعراء والناثرون عن أثر هذا الفقد بصور شتى ، واختلفوا فى هذا التعبير باختلاف ظروف الفقد ذاتها . لقد مانت أم الشاعر أحمد شوقي وهو فى منفاه فى الأندلس ، وكان يعطل نفسه بالعودة إلى مصر ولقاء آله والسعادة برؤية أمه ، ولكن البرق قطع هذا الأمل حينما نعى عليه أمه ، فحزن أشد الحزن ، ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المراثية التى بدأها شوقي بالحديث عن الخبر الذى وصله فأدمى قلبه:-

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهماً
من الهاتكات القلب أول وهلة
أصاب سويداء وما أصمى
وما داخلت لحماً ولا لامست عظماً
توارد والناعى فأرجست رنة
كلاماً على سمى وفى كبدي كلما

(٣) ديوان عبد الله العرودى المجلد الأول ص ١٣٨

(٤) ديوان حسن عبد الله القرشى المجلد الثانى ص ٢٤٣

فما هنفا حتى نزا الجنب وانزوى	فيا ويح جنبي كم يسيل وكم يدمى
أبان ولم ينس وأدى ولم يفه	وأدى وما داوى وأوهى وما رما ^(١)
إذا طويت بالشهب والدهم شقة	طوى الشهب أو جاب الغدا فية الدهم

فهو يشكو إلى الله في غربته ذلك السهم الذى أصاب فؤاده ، وجرح كبده وأدمى جنبه ، وقد وصل سريعا وطوى البلاد حتى وصل إليه .

ويوضح الشاعر خليل مطران وهو يرثى أمه ، تلك النعمة العظيمة التى كان يرفل فيها هو وجميع المحيطين به ، ولكنها لم تدم ، وهذا العز الذى تحول إلى ذل بموت تلك الأم:-

يا نعمة عظمت فلم تدم	وكذا تكون عظامم النعم
عشنا زمانا وهى قسمتنا	وغناؤنا عن سائر القسم
حتى عدناها فخرتنا	كالذل والإثراء كالعدم
واحر قلبا يا أميمة أن	تمضى ويمضى السعد من أمم
ماذا أنا؟ ولن مكافحتي؟	وعلام بذلى قوتي ودمى

هكذا يعطينا الشاعر فى خمسة أبيات كثيرا من المعانى المركزة الهادفة، فأمه كانت نعمة عظيمة ، ولكنها لم تدم وهذا شأن النعم ، لقد عاشوا زمانا وأهم هى كل قسمهم من الحياة ، وكفى بها قسما ونصيبا ، كفاهم عن سائر الأشياء . وفجأة فقدوا هذا النصيب ، فإذا عزهم يتحول إلى ذل ، والثراء كالعدم . ثم نشعرنا بالألم الذى اعتراه بعد ذهاب أمه،

(١) ديوان شوقي : شرح د أحمد الحوقى ج ٢ ص ٥٣٢ .

وذهاب السعد معها، ويدبر حواراً مع نفسه ويسمعنا إياه لنفهم منه أنه لم يعد موجوداً بعد ضياع أمه، ولم يعد يدري عن نفسه شيئاً، من أنا؟ ولمن مكافحتي؟ لقد كان يكافح لتسعد تلك الأم، لتسعد بوجوده، فلمن يكافح؟ ولمن يبذل قوته ودمه؟

والشاعر العقاد، هذا الطود الشامخ، والجبل الأشم الصلب، يتحدث عن فراق الأم بحسرة ولوعة، فهو لم يحسب حساباً على أن هذه الأم مفارقة يوماً ما، لقد حسب أن الأمومة أخت الدوام والبقاء والعطاء، لقد راض الخطوب الجسام ومع ذلك لم يرض نفسه على هذا الأمر. لقد علش أبياً لا يفجعه صوت، ولا يسكنه أحد، وها هو ذا يفجعه صوت النعسى، لقد خلا الكون من تلك الأم فأظلم وقد كانت نورا له ولدنياء، وتحولت البلاد إلى قفار وصحارى. **لقد كان يخاف الخطوب قبل موتها من أجلها هي، ولكنه الآن لا يخاف، فما الخوف بعد هذه الأم؟ ولم الخوف؟ ومن أجل من؟ وعلى من؟**

فراقك يا أم لم أحسب	له بغته أو نذيراً ترامى
وما روضنى لله الحادى	ت وإن رضى منها الخطوب الجاما
كأن اذكرتك لى مولدا	فلم أذكر لك يوماً حماما
حسبت الأمومة أخت الدوام	وخادعت ظنى عليها دواما
وأفحمتى فيك خطب النعسى	وفى غيره ما شكوت الفحاما
لئن عظم الموت يا أمنيا	لقد هان يوم مكنت الرغاما
وما أرخص النور لما غلا	لقد هان يوم مكنت الرغاما
خلا الكون منك فساذا أرى	من الكون بعدك إلا ظلاما

فيا هوفما من قفار تركت ويا شدت ما قد عرت الرجاما
تلاقى ذوى بطنى الثرى فانعم بحيث أقاموا مقاماً
لأجلك كنت أخاف الخطوب فما الخوف بعدك إلا سلاماً^(١)

والعقاد يذكر أبياتاً أخرى ، ويجيب فيها على ذاك المتعجب من بكاء
العقاد على أمه ، وهو شيخ كبير ، فرد عليه بهذين البيتين:-

تعجب قوم لشيخ بكى أكان المشيب لدعى فظاماً؟

ونحن مع "البردوني" ^(٢) الشاعر اليمنى المكفوف البصر الذى فقد
أمه ، وقد كانت عينه التى يرى بها ، ولذلك فإحساسه بالفقد أعظم ، فهو
فقد حسى ومعنوى ومن هنا تبدأ القصيدة مباشرة بالإحساس "بالترك" فقد
تركته، وتركته ها هنا، فى مكانه، كيف يتقدم أو يتأخر، تركته أمه
ومضت. يا طول حزنه واكتنايه، لقد مضت بلا عودة، لقد تركته للشقاء
وحده، واستراحت وحدها فى التراب:-

تركى ها هنا بين العذاب ومضت يا طول حزنى واكتناي
حيث لا جور ولا بغى ولا ذرة تنسى وتنسى بالخراب
حيث لا سيف ولا قبلية حيث لا حرب ولا لمع حراب
حيث لا قيد ولا سوط ولا ظالم يطفى ومظالم يحاي

(١) ديوان العقاد ج ٢ ص ٩١٥ - بيروت ، والألم فى الأدب: فتحي الإيبارى ص ٢٨
(٢) شاعر يمني من "بردون" التابعة للدمار ، من مواليد سنة ١٩٢٥ م ، أفقده الجدرى نعمة البصر فى السابعة من عمره
، تلقى دراسته فى دمار وصنعاء ، قام بتدريس الأدب فى مدرسة دار العلوم بصنعاء ، ثم عمل مديراً للبرامج الإذاعة.
من أعماله الأدبية : من أرض بلقيس : ديوان شعر فى طريق الفجر : ديوان شعر ، مدينة الغد: ديوان شعر ، لعمري أم
بلقيس : ديوان شعر ، رحلة فى الشعر اليمني : دراسة الشعر المعاصر فى اليمن

خلفنى أذكر الصفو كـما
ونأت عني وشوقي حولهـا
ودعاها حاصد العمـر إلى
حيث أدعوها فلا يسمعى
موقفا كان مصابى كله
أين منى ظلها الحائى وقد
سحبت أيامها الجرحى على
ومضت في طريق العمر فمن
وانتهت حيث انتهى الشوط بها
آه يا أمى وأشواك الأسى
فيك ودعت شبابى والصبا
كيف أنساك وذكراك على
إن ذكراك ورائى وعلسى

يذكر الشيخ خيالات الشباب
يتشد الماضى وي-أواه-مابى
حيث أدعوها فتعيا عن جـوابى
غير صمت القصر والفقر الباب
وحياتى بعدها فوق مصابى
ذهبت عني إلى غير إياب
لقحة اليد وأشواك الهضاب
مسلك رحب إلى دنيا صعب
فاطمأنت تحت أستار الغياب
تلهب الأرجاع في قلبى المذاب
وانطوت خلفى حلاوات النصايب
سفر أيامى كتاب فى كتاب
وجهى حيث يجيبى وذهابى

ويتحدث اليردوني عن حياته وكيف كانت أمه تطعمه وتسقيه
وتدفعه، ويرسم صورة رائعة لذلك عندما يصور يده فى يدها أو فى
طعامه أو شرابه:-

كم تذكرت يديك وهما
كان يضيئك نحولى وإذا
وإذا أبكنا الجـوع ولم
هدمت كفاك رأسى مثلما

فى يدي أو فى طعامى وشرابى
مسنى اليرد فترسداك ثيابى
تملكى شيئا سوى الوعد الكذاب
هدمت الفجر رياحين الروابى

كم هدتى يدك السمرا إلى

حقننا في (الغزل) في قاع الرحاب^(١)

لقد أضفنته الذكرى ، تلك الذكرى التي تحاصره من أمامه ومن ورائه ، يتذكر في طريقه ، وفي طعامه وشرابه ونومه ، لقد كانت أمه هى عينه التي يرى بها الطريق ويشرب ويأكل وينعم بالراحة والهدوء.

ومن هنا فهو يظهر التحسر والتفجع من خلال تلك الذكريات ، من خلال سجايا تلك الأم التي حرم منها.

ويصور "حسن القرشى" موت الأم ، وقد أظلمت الدنيا، وحولتهم إلى أيتام على مائدة الخطوب، لقد ثقلت المصيبة وحطت بكلكها وناء بحملها صبر اللبيب. هاهو الشاعر يهتف ولا مجيب، مع أنها كانت فى حياتها فصيحة بليغة. ويفجع الشاعر بهذا الصمت الغريب من تلك الأم التى لم تعد تصغى له وترد عليه، لا تسمع نداء هذا المقجوع

الملتاع يبكى ويئن:-

ها نحن يا أمه أيا	تمام بمائدة الخطوب
حطت بكلكها وناء	بحملها صبر اللبيب
وهتفت فأنحس الجوا	ب وكنت كاللسن الخطيب
تدققين فصاحة وبلاغة	وتنافسين صدى الأديب
أمه هل تصغين؟ ما	عودتى صمت الغريب
هل تسمعين نداء مفـ	جوع بحجسه الجديب؟

(١) الغزل : كـ "حول" : ما انحط من الأرض ، وهو قاع الرحاب من حقول والد الشاعر في قريته ، ديوان عبد الله البردوني : المجلد الأول دار العودة بيروت ، طبعة أولى ص ١٣٨

وهذا هو فريد عين شوكة يبدأ قصيدته رافضاً على هؤلاء اللوام
لومهم وعتابهم على بكاء الشاعر لأمه:-

ومع هذا البكاء وهذه الخسارة، وهذا الإحساس بالفقد، فإنه ينادى على
أخوته، والجميعية مشتركة بينهم أن يتأخروا ويتماسكوا كالبنين يشد بعضهم
بعضاً :-

ثم بعد ذلك يتمرد الشاعر على الصبر والتأسي ، وينطلق مرة أخرى لانذار دمه وحزنه مستهولاً للفجيعة بعد تعداد مآثرها:-

ياها من فيجيمية رزاقها	في سجايا عظيمة أي عظم
أيها الخزن! لا عدتمك حصى	تسحق النار في أتوك عظمى
أيها الدمع لا هجرتك حصى	يرف القلب في انسكاب دمي
أيها الصبر لا عرفتك حصى	يستوى في جوار أمي جمى
لا أطيق الحياة بعد نواها	آه ، يا ليت يومها كان يومى ^(١)

(١) ديوان حسن عبد الله القرشي: المجلد الثاني دار العودة بيروت ص ٢٤٣

(٢) مجلة الرسالة : ص ١١٨٧ السنة ١٥

(٣) الرسالة : ص ١١٨٧ السنة ١٥

ويبدأ الشاعر محمد الهراوى قصيدته فى رثاء أمه بالحنن والبكاء ،

وينهى قصيدته كذلك بالحنن والبكاء:-

تكشفت الأحداث بعدك يا أمى	فيا طول ما أبقي من الحزن والغم
الله يا أماء ما أنا بالذى	تعود أن يقوى على الحادث الجهم
فقدت التى كانت إذا شط بي النوى	تسائل عني في الدجى سارى النجم

وينهى قصيدته بالاستسلام للحنن، رغم نصيحة أمه له بعدم الحزن والبكاء:-

سأخضع يا أمى لقلبي ومدمعى	على رغم ما أسدبت من نصحك الجهم
وأبكيك بالقلب الذى تعرفينه	وللدمع شأن غير ذلك فى الحكم

ونحن مع الشاعر إبراهيم عبد الفتاح فى مواجهة ذلك اليوم الحزين الذى توفيت فيه والدته، فأدمى قلبه ، لقد دفن أمه ورجع مكلوم الجوانح داميا، وهؤلاء الناس يعزونه فإذا هذا العزاء يلذع كالجرم فيكوى قلبه، ويأخذ الحياء فيحبس دمه ، ثم تأتى كلمات المواساة فيفيض الدمع، وهما هو فى شيخوخته يرتد طفلا صغيرا يجيش بالبكاء، ويطلب من ركب الأحبة أن يتمهل فهو لا يطيق الفراق، فقد تحين وفاته. وهكذا تدفقت الكلمات على لسان الشاعر بلا توقف، مشعرة بالأسى والحنن، مصورة ما ألم بالشاعر من مصاب فى يوم الخميس، الذى لم يرحم فؤاده، ودفن أغلى الكنوز فى القبر ورجع وحيدا حزينا. وقد سلكت الشاعرة نازك الملائكة مسلكا آخر، لم يسلكه شاعر قبلها، فقد غلبها الحزن على نفسها ولم تجد لألمها من منفذ أو سبيل سوى أن تتعاش مع. تقول نازك مقدمة لقصائدها

قد يكون الشعر بالنسبة للإنسان السعيد ترفاً ذهنياً محضاً ، غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة. وقد كانت القصائد الثلاث التالية محاولة للتعزى، لجأت إليها على إثر وفاة أمي في ظروف محزنة، عانيت منها معاناة خاصة، ولم أجد لألمى منفذاً آخر غير أن أحبه وأغضى له^(١). فهي تصور الحزن غلاماً مغرقاً في الخجل والأسى يحبى الدموع الخرس في بعض العيون إنه ذاك الغلام الدائم الحزن الخجول:-

ساكن الأسمية الغرقى بأحزان خفية
والزوايا المهيئات السكون الشفق
أبداً يجرحه النوح ويضنيه العوي
فليكن من صمتنا ظل ظلي
يتلقاه وأحضر أن خفية
وهو يحبى في الدموع الخرس في بعض العيون
وله كوخ خفي شيد في عمق سحيق
ضائع يعرفه الباكون في صمت عميق^(٢)

وراحت الشاعرة تهدي هذا الغلام الحزين ، أدمعها الفدية ، وأسأها العميق ، وشئني حزن عميق:-

(١) ديوان نازك الملائكة : المجلد الثاني . دار العودة بيروت سنة ١٩٨٦ ص ٣٠٩

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٩

وسنهديه انفجار الأدمع العذبة سـلـوى
 وسنحوه أسى أقوى وأقـلـوى
 وسنغطيه عـيـونا وجـبـاها
 إنه أجل من أفراحنا من كل حـب
 إنه زينة ألقى بها المـوت عـلـينا
 لم تزل دافئة ترعش في شوق يديـنا
 وسنعطيه مكانا عطرا في كل قـلـب
 وشذى حزن عميق القـمـر عـصـب
 إنه منا وقد عـنـاد إلـينا^(١)

وتسلك الشاعرة وفاء وجدى^(٢) مسلكا آخر ، عندما ترسم صورة

لشبح الموت وهو يلثم بوالدتها وتصور تلك اللحظات الأخيرة بقولها:-

(١) المرجع السابق ص ٣٠٩

(٢) ديوان: الرؤى من فوق الجرح : وفاء وجدى ص ٣١ طبعة الهيئة سنة ١٩٨٨ م

وجميلة العاليلي تشدد قصيدة فى عيد الأم فتبدأ قصيدتها بكلمة تحمل كل معانى الأسى والحزن والضيق "العيد عاد ولم تعودى" كأنها لا تصدق أنها ذهبت بلا عودة، كأنها مازالت تنتظر أمها علها تعود، وهى فى هذا الانتظار تنزف دمعها قصيدا، وتدعو ربها كل يوم أن
تعود تلك الأم:-

(١) المرجع السابق : الصفحة نفسها .

العيد عاد ولم تعبردى يا من ملأت بها وجودي
الطير يشدو في الخـمائل أين ملهقي نشيبي
وأرى فـؤادي لا هـيـا مسترفا دمع القصـيد
وتغيب أحـلامـي التي أسعدتها في كل عـيد^(١)

والشاعر عمر بهاء الدين الأميري، يخصص لأمه ديوانا خاصا باسمها يسميه ديوان "أمي" معبرا عن شعوره الفياض الحنون تجاهها حية وميتة^(٢) وهو يصور فقدده لأمه وعمق جراحه عندما يقول:-

أماه فقدك عندي أفدح السـوب جراحه نكأت جرحي بفقد أي
يا للسنين لقد مسرت صحائفها تترى كأن بها رتل من السحب
خمس وعشرون من عمري مرزاة مليئة بضروب الهم والوصب
صبر وشكر وشكوى وارتياب غد كل يوم غد في حلم مرتقب^(٣)

ويصور الشاعر محمد أحمد العزب^(٤) موت أمه في نغمة حزينة باكية لا ينقلها إلينا مباشرة أو في جمل تقريرية جافة ، فهو لا يقل إنني أبكى أو أنني حزين ، ولكنه يصور تعجبه واندھاشه من سير الحياة سيرا طبيعيا مع أن أمه قد ماتت ، فلا الحزن في عيون الناس ولا الحمايم توقفت عن الطيران ، وهو يصرخ في الكون كله "أمي ماتت" "متتا"

^(١) ديوان: نضات شاعرة: جملة العلايلي طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١ م

^(٢) الرثاء في الشعر العربي أو جراحات قلب: د / محمود حسن ناجي ص ٢٣٤

^(٣) ديوان أمي ص ١٧١ .

^(٤) الأعمال الشعرية الكاملة : د/ محمد أحمد العزب ص ٦١٣ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ م

ويتمتع الناس في جمل جافة محفوظة تلقى دون إحساس "يرحمها الله"
ويرى الشاعر أنه لا جدوى من البقاء بعدها:-

"أمى ماتت"

وأحرق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا !!

يا قسوة عين لا تبكي أحزان الناس !!

"أمى ماتت"

لكن حمائم جارتنا تمضى عنى ..

مثنى .. مثنى !!

وأنا أتتسلسل كلمات ذابلة الوجه بلا معنى !!

ماتت .. متنا !!

ويتمتع شيخ تلجى الإحساس !!

" أجل ... يرحمها الله !!

يا شيخ تألم لى ...

صعد حتى من شفتيك الآه !!

ما أقسى قلبك ... ما أقساه !!!

ويسير البعض على أعناق الناس إلى الوادى الآخر !!!

وأنا أتساءل :

ما جدوى أن أحيا - أو يحيا الآخر ؟

وقد رثى الشيخ سيد قطب رحمه الله أمه نثرا تحت عنوان "أماء"

فيصور حالته ، وحالة إخوته بعد فقد الأم وكيف تشتت الأسرة ، وأحس

بالوحدة ، وأحس بفقد أبيه ، وهو يصور ذلك *فيقول*:- " من نحن اليوم يا أمه؟ - بل ما نحن اليوم عند الناس وعند أنفسنا؟ ما عنواننا الذي نحمله في الحياة ونعرف به؟ إننا لم نعد بعد أسرة "، ولم يعد الناس حين يتحدثون عنا *يقولون* :- "هذه أسرة فلان ، بل أصبحوا *يقولون* : -"هذا فلان وهذا أخوه، وهاتان أختاه، اليوم فقط مات أبي، واليوم فقط أصبحنا شيئاً منثوراً، وإنني لأضم اليوم إلى صدرى ابنكما وابنتيكما، أضمنهم بشدة لأستوثق من الوحدة، وأشعرهم بالرعاية. ولكن هيهات هيهات، فأنا وهم بعدك أيتام يا أمه ^(١) وهو يصور في بساطة شديدة مع عمق بعيد ودلالة قوية إحساسه بالفقد والتشتت والضياح ، فالناس كانوا يقولون أسرة فلان، واليوم *يقولون* :-" هذا فلان، وهذا أخوه، صورة بسيطة لكنها عميقة وتستمد عمقها من بساطتها". *وكذلك إحساسه بالتشتت فيسروح يلتصق بأخيه ، يضمه إليه على* يشعر بالوحدة والتوحد ، ولكن أنسى له ذلك بعد فقد الأم، هيهات هيهات لقد أصبح يتيماً بعد فقد أمه، غريباً بعد موتها.

وقد رثت تلك الأم، أخت الشيخ سيد قطب أيضاً، الأنسة أمينة قطب، في مجلة الرسالة تحت عنوان *"بعد الفاجعة"* وهي تتشكك منذ البداية في قدرتها على الكتابة بعد فقد أمها فقد كانت تلك الأم (القوة الغريبة التي تشع الحياة في عقولنا ونفوسنا، فنفكر ونحس ونقوى على العمل) وبعد فقد تلك الأم لم تعد قادرة على الكتابة لأنها بفقد الأم فقدت كل شيء

^(١) الرسالة: العدد ٣٨٢

(والآن ماذا فقدنا بفقدك يا أماء؟ لقد فقدنا كل شيء فكفنت عقولنا عن التفكير وأظلمت نفوسنا وخمدت فينا جذوة الحياة)^(١)

وتقارن أمينة قطب بين حالتها قبل موت الأم وبعده، فإذا حالها قد تبدل ونفسها قد تغيرت، وذلك حين تقول (أمى ٠٠٠٠ أصبح أن ما مضى على رحيلك عنا هو تسعة أيام؟ إذن كيف تمر الشهور والسنوات؟ تسعة أيام فقط تتبدل فيها نفسى هذا التبدل؟

أين نفسى الأولى المرحلة المشرقة المتفتحة للحياة الخالقة للأمل؟ أين هى من هذه النفس الميتة الغائبة عن العالم، وما فيه من آمال وأحلام، البعيدة عن كل ما فى الكون من مباهج وجمال؟ إن هاتين النفسين لتفصل أحدهما عن الأخرى سنون وأجيال^(٢)

ويكتب الأستاذ عبد المنعم خلاف راثيا أمه، وقد أحس يوم موتها أن حياته قد انشطرت، وأنه أصبح كغصن غاب عنه جذعه الذى يربطه بالأرض (وها هو ذا وجهها يطالعنى بعد موتها مغمض العينين ينظر لى من فوق سرير الموت ومن أعماق ظلمات القبر، فأشعر لمفارقة أن حياتى قد انشطرت، أو أنى كغصن غاب عنه جذعه الذى يربطه بالأرض^(٣))، وتذكره كل معانى الحياة اليومية بتلك الأم فتثير هذه المعانى

(١) الرسالة: العدد ٣٨٢

(٢) الرسالة: العدد ٣٨٢

(٣) الرسالة: العدد ٦٥٢

فى نفسه شـجنا وحننا يعينه فى حياته الروحية
(وحن أمر بسريرها خاليا من جسدها الذى كان ملء نفسى وفكرى، وحن
أرى ثيابها يعمرها شبحها، وأتذكرها تمر بالمنزل حجرة حجرة كطيف
رحمة... وحن أقرأ مدونة محفوظات أمثاله وحكمها الكثيرة العجيبة
التي كانت تستشهد بها كأحسن منطق فى منطق العامية المصرية نقلا عن
عمتها الحاجة "شركس" الصالحة التي لم تتجب وكان همها العبادة
والتوجيه لشباب لعائلة. وحن أرى البقية القليلة من لداتها وصديقاتها
اللاتى من طراز كاد يفنى بل حين أرى عجوزا مثلها فى أى
مكان... حين هذا كله شعرت وأشعر أنها خلفت لقلبي زخيرة قيمة من
الحزن الثمين اللذيذ يقات منه فى أزمت القحط الروحي^(١)).

٥ صور متفردة:-

قصيدة الرثاء لها طابعها الخاص، فهي تكاد تكون مقصورة على بكاء
الأم، ومع ذلك نجد فيها الفخر من الشاعر بنفسه، ونجد ظروف إنشاء
القصيدة تلقى بظلالها على الأبيات فى صور متفردة فى كل قصيدة على
حدة.

(١) الرسالة: العدد ٦٥٢

ومن ذلك ما وقع لشوقي حين بلغة نبأ وفاه الأم وهو فى منفاه
بالأندلس بعد قيام الحرب الضروس ، ومن هنا فقد ألفت ظروف النفى
والحرب بظلالها على تلك القصيدة :-

حافت بما أسلفت فى المهد من يد	واوليت جثمانى من المنة العظمى
وقبر منوط بالجلال مقلد	تليد الخلال الكثر والطارف الجما
وبالغاديات الساقيات نزيله	من الصلوات الخمس والآى والأسماء
لما كان لى فى الحرب رأى ولا هوى	ولا رمت هذا الثكل للناس واليتماء
ولم يك ظلم الطير بالرق لى رضا	فكيف رضائى أن يرى البشر الظلما ؟
ولم آل شجان البرية رقصة	كان ثمار القلب من ولدى ثمما
وكنت على نهج من رأى واضح	أرى الناس صنفين الذئاب أو اليهما
وما الحكم إلا فى أولى البأس دولة	ولا العدل إلا حائط يعصم الحكما

كان الشاعر قد نفى إلى بلاد بعيدة عن وطنه ، ومن هنا فقد جاء فى
قصيدة الرثاء ذاك التشوق والحنين إلى مصر ، وما يحسه فى البلاد
الغريبة وما يعانيه :-

نزلت ربا الدنيا وجنات عدن	فما وجدت نفسى لأنهارها طعما
أريج أريج المسك فى عرصاتها	وان لم أرح مروان فيها ولا لخما
إذا ضحكت زهوا إلى سماؤها	بكيت الندى فى الأرض والبأس والحزما
أطيف برسم أو ألم بدمنة	أخال القصور الزهر والغرق الشما
فما برحت من خاطرى مصر ساعة	ولا أتت فى ذى الدار زيلت لى وهما (١)

(١) ديوان أحمد شوقي : ج ٢ ص ٥٣٧

❖ فيذا قال المتنبي :-

ولو لم تكون بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كوكب لي أما

قلده شوقي فقال:-

ولو لم تظهرى في العرب إلا بأجد كنت خير الوالدات
وهو يفخر بنفسه في بقية القصيدة واصفا نفسه بأنه أحكم الشعراء
وأبلغ الكتاب ، وهو صائن للأعراض ، وحافظ للعهود ، قد خبر الدهر
وتعلم الصبر على النوائب ، وقد علمه الدهر أن يكون حذرا ، وإن كلن لا
يغنى حذر من قدر ، ولكنه يخشى المباشرة:-

فكان الوالدان هدى وتقوى	وكان الولد هذى المعجزات
ولو لم تظهرى في العرب إلا	بأجد كنت خير الوالدات
تجاوزن الولائد فاعترات	إلى فخر القبائل واللغات
وأحكم من تحكم في براع	وأبلغ من تبلغ من دواة
وأبرأ من تبرأ من عدااء	وأنزله من تنزه من شحات
وأصون صائن لأخيه عرضا	وأحفظ حافظ عهد اللدات
وأقل قاتل للدهر خيرا	وأصبر صابر للغاشيات
كأن والزمان على قتال	مساجلة بميدان الحياة
أخاف إذا تشاقلت الليالي	وأشفق من حقوق النايبات
وليس بنافعي حذري ولكن	إباء أن أراهها باغيات(١)

(١) ديوان شوقي ج ٢ ص ٤٠٠ دار نهضة مصر تحقيق د/ أحمد الحرق

ويرثى أمه بعد أن أتاه الخير وهو فى منقاه فى الأندلس ، ويفتت الحزن نياط قلبه ، ومع ذلك لا يترك الفخر فى قصيدته . ولعل ذلك من تأثير معارضته للمنتبى فى رثاء جدته .

فهو يختم قصيدته مخاطباً والدته مادحاً إياها مثبها عليها من ناحية ، ومفتخراً بنفسه من ناحية أخرى :-

لئن فات ما أملت من مراكب	فدونك هذا الحشد والموكب الضخم
رثيت به ذات النفس ونظمته	لنصره الأركسى وجوهه الأسمى
تمسك مناجيب العلا وغيتها	فلم تلحقى بنتا ولم تسبقى أما
وكنى إذا هذى السماء تحسائلت	تواضعت لكن بعد ما فضا نجما
أتيت به لم ينظم الشعر مثله	وجئت لأخلاق الكرام به نظما
ولو فحضت عنه السماء ومحضت	به الأرض كان المرن والقبر والكرما (٢)

فإن كان قد فات هذه الأم ما كان يليق بمثلها من مراكب ومواكب، فهاهى أبياته وقصائده تقوم هذا المقام، فهى تستحق هذا، وهى من المناجيب التى لم يلحقها ولم يسبقها أحد، وهى رغم ذلك كان يجللها التواضع رغم إنجابها لهذا الشاعر الذى لم ينظم الشعر مثله أحد .

ونجد هذا الفخر فى قصيدة مطران وهو يرثى جدته ، ولكن نغمة الفخر هادئة متطامنة وليست شخصية ، فهو يمدح جدته بأنها أنجبت نسلا عظيما كلهم يعتلى صهوة المجد :-

(٢) الديوان - ٢ - ص ٣٧

يكيك نسل كنير	أنجيه للمعـ
بين الكهول وبين	الشباب والأطفـ
أهلية وبدور	من فية ورجـ
وأنجهم وشـرس	من عفة وجـ
تفاوتوا طبقـات	في السن لا في الكمـال ^(١)

وعندما يرثى البردوني أمه، ويذكر خوفها وحديها وإشفاقها عليه،
يقتخر بنفسه، ليسعد أمه في قبرها بأنه قد أصبح رجلاً تقتخر به الأمهات.
فإذا كانت الأم قد خافت على مصيره، وفزعت لعماءه، فقد آن الآوان أن
تطمئن وأن يهدأ بالها، فقد أصبح طائر الصيت، *يملاً التاريخ مجداً*
وخلوداً:-

كم بكت عيناك لما رأنا	بصرى بطفاً ويطوى في الحجاب
وتذكرت مصير	بين جبينك جراح في الشهاب
ها أنا يا أمي اليوم فنى	طائر الصيت بعيد في الشهاب
أملأ التاريخ لحناً وصدى	وتغنى في ربا الخلد ربـي ^(١)

* في حياة الأم :-

هل هي مقولة صحيحة تلك التي رصدت خلو الشعر العربي من الحديث عن الأم
إلا حين موقها؟ والتي تقول (وفي إمكاننا أن نمر سريعاً بعدد كبير من الشعراء حتى نصل
إلى أبي الطيب المتنبي فنجدته يذكر الأم في قصيدته التي رثى بها جدته لأمه، فهو لم يذكر
الأم إلا بمناسبة الموت، وكذا الحال في شوقي ٥٥٠ فديوان شوقي الكبير لم تحظ الأم إلا

^(١) ديوان الخليل : ج ٢ ص ٥٥٤

^(٢) ديوان عبد الله البردوني : المجلد الأول ص ١٣٨ دار العودة - بيروت طبعة أولى سنة ١٩٧٩ م

بقصيدة واحدة ، ومتى؟ بعد مائتا ٠٠٠ حتى القصيدة لم ينظمها كلها في أمه، وإنما غلف عاطفته بمناجاته للوطن ٠٠٠ حتى العقاد لم ينشد قصيدة عصماء عن أمه؛ إلا بعد أن طواها الموت تحت رداءه الكالح، عندئذ فقط صدرت الأنغام الحزينة من قيثارة العقاد (١) وإن كانت هذه الدراسة على إيجازها قد أشارت إلى بعض القصائد التي تحدثت عن الأم في حياتها مثل قصيدة روية القليبي "الأم في ديوانها" أنغام حاملة (٢)

والناظر في ديوان الشاعر أبي فراس الحمداني، يجد صلته بأمه في حياتها، وفي أمره لم تنقطع بل تحدث إليها بوصفها بالصبر ومعنيها بالأجر الذي ينتظرها جزاء هذا الصبر ويضع نموذج الخنساء أمامها في صبرها على استشهاد أولادها وصبرها وقولها: الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم :-

فيا أمتاً لا تعدمى الصبر إنه	إلى الخير والنهج القريب رسول
ويا أمتاً لا تخطئ الأجر إنه	على قدر الصبر الجميل جزيل
أمالك في ذات النطالين أسوة	بمكة والحرب العوان تجسول (٣)

* في العصر الحديث :-

وقد شغلت الأم في عصرنا الحديث فكر الشعراء في حياتها، فتحدثوا عنها وعن فضلها ودورها وأثرها ، ومن هؤلاء الشعراء محمد عبد الغني حسن، في ديوانه "سائر على الدرب" وقد صوّره بقصيدة عن الأم واصفا إياها بالحب الخالص بحسبي ملهمته ومعلمته هي التي علمته حب زوجته وحب الدنيا وتذوق الجمال وكل جمال بغير أم باهت المعالم وكل ضوء في غياب الأم ظلام ومجود :-

(١) الأم في الأدب : فحي الأبياري ص ٣١

(٢) المرجع السابق ص ٣٢

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٢٣٣

الحب يا أماه منك مزاجه	مهما شربنا فيه من أكواب
نلهو بما سمح الزمان بحسنه	ونطبق كل شقاوة وعذاب
ونكاد نلقى فيه كل خسارة	ونكاد نحمل فيه كل تباب
لولاك لم نعرج على أعتابه	يوما ولم نلمع على الأبواب
لكن حبك فيه كل قداسة ألد	مغنى وكل طهارة المحراب
أماه بين يديك زوجتى التى	أحببتها فحببت فى شبابى
ما الذنب ذنبى إن كلفت بحبها	إن وصلت بحبها أسبابى
فالحب منك عرفته وسقيته	مترقفا كالجدول المنساب
أنت التى سلسلته فى هيكلسى	وأذيتة كالشهد بين لعابى
وأذعته كالعطر ينفخ منكبسى	وتفوح من أرج به أتوابى

ويواجه الشاعر خطابه لأمهات اليوم محيا ومعظما لمن ، فهن أنفاس الحياة وطبيها

وجاهها :-

يا باذلات الحب طهرا صافيا	فى غير ما جلب ولا تصخاب
انتن أنفاس الحياة وطبيها	وجمالها الدفاق بالأطراب
كل الجمال بغير أم باهت	لا حسن فيه وكل ضوء خابى ^(١)

وتنشر الشاعرة جميلة العلايلى ديوانها نبضات شاعرة فتهديه إلى أمها وولدها
وتصدره بتسع قصائد عن الأم متبعة في نبضات شاعرة فراقها لأمها بالزواج ، وعيد
ميلاد الأم ، ومرضاها ، رغير ذلك من أحداث إلى أن تموت الأم.

والشاعرة جميلة العلايلى تصور فراقها للأم بالزواج والعيش بدونها ، وتكشف
عن حزنها لأمها وقد بدأت تزيل :-

وقضى زمانى بالفراق كاته	لا بد أن ترمى الحياه سهام
-------------------------	---------------------------

^(١) سائر على الدرب محمد عبد الغنى حسن ص ٧ المكتبة العربية القاهرة سنة ١٩٧٤م

وأرى الحياة بغير وجهك قفرة	فالعين تذرف والدموع جسام
وأرى الليالي موحشات جهمة	سيان عدى الضوء والإظلام
يا أم لا تبكى الفراق ولا النوى	فلسوف تجمعنى بك الأيسام
أبروم قلبك أن يحطمه الغنى	وله أعيش وتعذب الآلام
يا أم ما نعمتى حياتى إن خلت	من قلبك الحانى كذاك حرام

إلى أن تقول :-

لهفى على الأم الرعوم من الضنى	ومن الهموم كأتهم ضرام
لهفى على الكنف الظليل مضت به	ريح الخريف فعاد وهو حطام
لهفى على الروح الطهور وقد بدا	طيفاً شقيقاً قد طواه هيام ^(١)

وهكذا نرى جزع الشاعرة على أمها وتصويرها لها وقد أصابها الضنى والهموم

وقد حولتها السنون إلى حطام

وترجع الشاعرة بذكرياتها إلى الوراء في قصيدة تحت عنوان (رغم البعاد أنا معك) تتذكر فيها سهرها مع أمها وهي تحكى لها الحكايات بصوت حنون ، وتندفق الذكريات

التي يخفق لها القلب وينبض الفؤاد :-

هل تذكرين وقد سهرنا فى الليالى الممطرة
فقضيتها أصغى إلى حلو الأغاني الساحرة
فإذا قصصت رواية تحكين صوت السامرة
من ذا يظن بان شذوك وحى شعر الشاعرة

إلى أن تقول بعد أن تعدد ذكرياتها في الطفولة والشباب والزواج :-

أه من الذكرى توشوش أيها الأم الرعوم
فى كل نبض للفؤاد تهيم بالقلب الهموم

^(١) نبضات شاعرة : جيلة الملايلى ص ١٣

وله خفوقى الطير فى يوم العواصف والغيوم

كم ذا أعانى حيرة بين البشاشة والوجوم^(١)

وتنشد الشاعرة القصيدة تلو القصيدة فى "عيد الأم" و"سلاما يا أمى" و"ميلادها"
و"أمى تعالى" و"رجع الأنفاس" حتى تصل إلى تلك القصيدة التى تصور فيها مرض أمها
وصدى وجيعها ، مع أن الشاعرة قد الفت المواجه فقد نالت منها تلك الوجيعه وأثرت
فيها ، وهى تضرع إلى هذا الداء العضال أن يرفق بأمها ، وتخاف أن يكون نجم الشفاء
قد ضل الطريق ، وتضرع إلى الله أن يشفيها :-

إلى ألفت مواجعى حتى غدت لى كالصلاة
يا أم داؤك نال من قلبى المعذب ما اشتهاه
يا داء رفقا بالأمو يمة إنها كنز الحياة

إلى أن تقول :-

أليكون نجم شفائها قد طاف دنياها وتاه
ضل الطريق لبرجه فمتى يطالعنا ضياه^(٢)

وليس المرض فقط هو الذى يحرك المشاعر والأحاسيس تجاه الأم فى حياتها ، ولكن
الاغتراب وسماع صوت الأم عبر الهاتف فى عصرنا الحديث مما يحرك المشاعر ويثير قبيلولة
الشعر وتفجور المشاعر والعواطف فى قصيدة "دمعة على سماعة الهاتف"
يقول فيها الشاعر :-

بعث الصوت كامن الأضجان مثلما سرنى فقد أبكتــــى
نقل الهاتف الحديث المرجى فسرى الذفء والرضا فى كياتى^(١)

(١) نضات شاعرة: ص ١٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٧

(٣) إلى حواء : عبد الرحمن صالح المشماوى ص ٤١، ٤٠، ٣٩ الناشر : مكتبة الأديب - الرياض الطبعة الأولى
سنة ١٤٠٦ هـ

أى صوت هذا الذى خالط النفس وأحيا النشيد فوق لساني
انه صوتها نشأت عليــــه نغم فيه قصة الإنسان
صوتها لم يزل يعانق قلبي فيه فيض من عطفها والحنان
أيها الصوت أين تلك الليالي كيف حل النوى محل التداني
صوت أمي لا شك لكن عيني لا تراها ولا ترى إخواني

والشاعر هنا كما نرى يعبر عن تجربة عصرية هي الاغتراب من ناحية ، والحديث عبر الهاتف وسماع صوت الأم عبر مسافات طويلة ، فهو يسمع صوتها ولا يلمس عينه برؤيتها ، ولذلك يصرخ قائلاً مخاطباً هذا الصوت الذى لم يجد غيره ولم يحس سواه : أيها الصوت أين تلك الليالي ؟ لم أصبحنا في هذه الغربة ، وحل النوى محل التداني ؟ وإذا كان الصوت قد أسعده فقد أبكاه ، لانه تذكر أمه وتاق إلى رؤيتها .

ونرى الشاعر مرة أخرى مخاطب أمه ويدعوها إلى نبذ اليأس والثقة بالله والرضا بما قسم الله ، فقد وطن نفسه على حمل الهموم :-

أماه لا يتأسى فانه برعائنا وفيض إحسانه في البؤس يغشانا
ثقى به والبس ثوب الرضا وخذى من الخضوع له نهجا وعنوانا
كل الأمور التي تأتي يقدرها ربي وما شاءه في أمرنا كانا
أماه ما قيمة الدنيا إذا عصفبت بها الظنون وصار المرء حيرانا
وطنت قلبي على حمل الهموم فما يعضه البؤس إلا زاد إيماننا

ويعلن الشاعر أن هذا الصمود وهذا الرضا وذاك الصبر ، كل هذه المعاني قد استقاها من أمه ، تلك التي كانت الظل في القبط والنور في الظلام ، والورود والرياحين في درب الصحراء المفقرة :-

منك استقيت صمودي في الحياة فما أعلنت يأسا ولا أعلنت خذلاً
مضيت في رحلتي والقبط ملتهب فكننت ظلاً على دربي وأغصتاً

فكنت في ظلمتي نورا أسير به وفي صحارى الأسى وردا وريحانا
ورغم صمود الشاعر وصبره ، ورغم ثقته بالله ، ومع رضاه بالمقدور ، إلا أن أمرا
واحدا فوق طاقة الشاعر وصبره واحتماله ، وهو فراقه لأمه وبعده عنها :-
أما كل الجراحات التي اشتعلت .. تهون لكن جراح البعد ما هاتا ^(١)
ومرة أخرى يصحو الشاعر على مناجاة الأم لربها في دعاء ممزوج بعبيرات الحنان ،
فتأسره هذه اللوحة ، ويسجلها في شعره ، ويهتف بأبيه أن يعود إلى الحياة ولو للحظة
ليرى وفاء الأم وبرها:

أبى وقد صرت بعيد المدى	وهل يرد المرء من قبره
ليتك تصحو يا أبى ساعة	لكى ترى الإخلاص فى قدره
لكى ترى مرتع أحلامنا	نستروح الآمال من زهرة
لكى ترى أمى على عهدنا	ترضعنا الإيمان من زهره ^(٢)

وتجرح عاطفة الشاعر مرة أخرى في القصيدة تلو القصيدة واصفا حسان وعطاء
الأم ، بمصورا عجزه عن وصف هذه الأم وعطفها وحنانها :-

رأيت بعينك المحبة والطفلا	وشاهدت يا أماء فى وجهك العطفلا
حنان وإشفاق على ولوعة	لبعدى فما اغلى الشعور وما أرقى
تحسين بالآلام حين أحسها	وتشفين من آثارها عندما أشفى
يؤنبني فيك الضمير لأتسه	يرى أن شعري فيك لم يبلغ الوصفا
ونلك حق ، لو وقفت قصائدى	وكل كتاباتى عليك لما وفسى ^(١)

^(١) إلى حواء : صه

^(٢) إلى حواء : صهه

^(١) إلى حواء : ص١٥١

وشاعر آخر يهدى شعره إلى أمه معترفا بأنها قبلة الحنان والدفاء والغذاء

والشراب

قبله منك أول القبيلات يا حنانا يحوطنى فى حياتى
يا ابتسام الحياة فى ناظرى الغضى وأنتى فى وحشة الحالكا
أى طوق يحوطنى كل حين ملؤه الدفاء صادق للمسرات
وغذاء من الشوائب صاف سائب الشرب مغدق البركات
قد ترعرت فى حماك صغيرا وأنا اليوم فى رجال كمساء
بين جنينك قلب أم روم لم يزل نابضا كريم الهيات
كم أرى الدمع من مآقيك يهيمى ذاك دمع الحنان قبل شكايتى
أنا يا أمى الحنون نشويد يتغنى فى أعذب النغمات
أنا يا معدن الحياة هتاف فيه أو فى الحقوق للأمهات
أنا يا بسمه الوجود سجل ملأ الدهر ناصع الصفحات
فأقبل شعري المضمخ بالود دعاء من أخلص الدعوات^(٢)

* محنة أم :-

وقد تعرض الأم غنة من الغن ، فتدوب نفس الشاعر أسى وحسرة ، ويسجل ذلك فى شعره ، وممن ترض لذلك من الشعراء "المازنى" فأخذ يواسى أمه فى غاشية من غواشى الأمسى ، ويدعوها إلى عدم الجزع :-

يا أم لا تجزعي مما يدهمتنا من الخطوب ولا تأسى لما فاتنا
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة ويقسم الله أرواقا وأقواتنا
وكل ضائقة نعرض إلى فرج وإن لليسر مثل العسر ميقاتنا
ضل الذى يرتجى تأخير قسمته قد مات كالكبش إسماعيل قد ماتنا^(١)

(٢) ترائيم الرمال : قصيدة أمى * ص ٨٠ عبد العزيز النقيدان ، مطبوعات نادى القصيم الأدبي بريدة .

(١) ديوان المازنى ج ٢ ص ٢١٣

ويعلق العقاد على هذه الأبيات قائلا : هذه الأبيات قد أودعت نفس المازني العطوف الذي يؤلمه الحزن في نفس أمه ، ولا يشغله عنه حزنه وألمه (٢)

*جنون أم :-

أهاض حناجي مذ أصبت بلوثة فضاخ بها منك التودد والبر

يا لها من محنة قاسية تلك التي تعرض لها الشاعر عندما أصيبت أمه بالجنون ، واضطر لتقييدها وحبسها رجه بها ، وقد لجأ إلى الطب فعجز الأطباء وكلست حيلهم فلجأ إلى الله سبحانه وتعالى . وصور هذه التجربة القاسية على نفسه ، فراح ينفثها في شعره ألما ودموعا . وهو يتوجه في بداية قصيدته إلى أمه مستعطفا إياها مؤكدا أن ما يفعله ليس عقوقا بها ، ولكنه يفعل ذلك والألم يعتصره :-

حناتيك أُمي لا عقوق ولا نكسر	ولكنها الألم في قبضتي سقـر
قرأت به الأبيات نفري حشاشتي	ويعشى بها طرفي ويطوى بها العمر
فمن مقلتي الدمع السخين سحائبنا	على الخد يهيمها فؤاد هو البحر
براكين من نار يؤججها الأسى	وثورات ملتحاح يدوى بها الصدر
حناتيك يا أُمي فالهموم تلاحقت	ولولا البلاء المر ما حير الفكر
قساوات الأم وشكوى متاعب	وينهشني من وقعها الذاب والظفر
فإن قلت صبرا عاث بالصبر عاصف	يجر عني كأسا ثمالتها الصبر
فأختال نشوانا ويا نشوة الأسى	تغيب بإحساسي كما يفعل الخمر
فأهذي كما يهذي المضيق لبسه	ويلهب همي في جواتحي الجمر
فاحسب أن الدمع يطفئ أواره	فابكي عسى بالدمع ينجبر الكسر
إذا بنصبي مهجة قد نثرتيها	وكان جزائي أنه استغفل الأثر
فوزعت جرحي بين قلبي ومقلتي	وفاضت قروحي حين خاتني الصبر
حيست أنيني ثم أرسلت عبرتي	يغالبا ذكواي المكيلة الجهـر

ولم أشك عدما لم ولم أرج حاجة
أهاض جناحي مذ أصبت بلوثة
وخلاك رهن القيد تهذين ليس لى
وما القبر عدى غير سجنك ينطوى
فان قلت حلوا القيد قالوا جنونها
فما حيلة أستطيع إلا بذلتها
وان كان فن الطب قصر عامدا
حنانيك يا أمى حبيستك رحمة

ولكن زمانى طبعه الكيد والغدر
فضاع بها منك التودد والبسر
سوى أمة المذبوح لاح له القبر
عليك كما يطوى بأحشائنا السر
عضال وهذا القيد يفرضه الحذر
فعدت وإن اليسر فى حليتى عسر
إلى الله أشكو له النهى والأمر
فليس على اليوم عتب ولا وذر^(١)

سجن الأم قبر بالنسبة له ، وهو الذى يضعها بيده فى هذا القبر ، ويطلب منهم أن يفكوا هذا القيد ، وأن يطلقوها من أسرهم أو من قبرها إذا بهم يوقفوه على الحقيقة الفاجعة " جنونها عضال " وبذل الحيل ، ويعجز الطب ، ولا يجد البرد والسلام إلا فى التسليم بقضاء الله " إلى الله أشكو له النهى والأمر " وربما بدت هذه تجربة شخصيه عاشها الشاعر وانطق يعبر بقصيدته عن هذه التجربة ، فالقصيدة ليست فى الأم ولكنها فى هذه التجربة التى عاشها الشاعر مع هذه الأم. وتقول إنها تجربة مع مرض أمه ومع ذلك نرى الشاعر نفسه يخاطب أمه فى عيد الأم داعيا لها بعمر مديد :

تهان وحيات القلوب عقوق
على من نفدى بالحياة حياتها
على أمنا من لا نزال بحبها
وأماننا أن يحفظ الله روضه
ونشدها بها والكون يرجع صاندا
قيمتنا المولى الكريم إجابة

بيوم بأحلى الأمنيات يعود
ونطمع منها بالرضا فتجود
نفنى وخلصات النفوس تعيد
شذاها دعاء والحنان ورود
لتحيات وأفراح الحياة بنود
بعمر مديد وهى فيه نشيد^(٢)

(١) مجموعة النيل : طاهر زعشرى ص ٢٨٩ الناشر قامة ، جده ، الموديه الطبقة الأولى سنة ١٩٨٤ م

(٢) مجموعة النيل : طاهر زعشرى ص ٦٠٦

قصائد كثيرة وشعراء كثيرون تحدثوا عن الأم في حياتنا وتحدثوا عن حنانها وعطائها وقلبها. ونختم هذه الاستشهادات بقصيدة الشاعر القروي رشيد سليم الخوري تلك التي عنوانها *أمي* والتي يقول فيها :-

ولو عصفت رياح الهم عصفا	ولو قصفت رعود الموت قصفا
ففي أذني عند النزع صوت	يحول لي عزيف الجن عزفا
فيطربني وذلك صوت أمي	
ولو ملئت لي الجامات صبرا	ولو جرعت حلو العيش مرا
ففي شفتي ينبوع عجيب	يحول لي كؤوس الخل خمرا
فيسكرني وذلك نكر أمي	
ولو هجمت على قلبي البلايا	وهدت سور آمالي الرزايا
فإن بباب فردوس ملاك	يسل السيف في وجه المنايا
فيحرسني وذلك طيف أمي	
ولو أتى رزنت بفقد مالى	وأصحابي وأشعاري الأوفى
فلى كنز ، وقاد الله ، أغلى	من التاج المرصع باللالى
ألا وهو الحنان بصدر أمي	
ولو يارب في اليوم العظيم	تلوت على حكمك بالجحيم
فلى أمل بأن ستعود يوما	فتصفح في جهنم عن أليم
وقلبك يستحي من قلب أمي ^(١)	

وإذا كان صوت الأم وذكرها وطيفها وصدرها الحنون وقلبها الطيب هو ما يملأ حياة رشيد سليم الخوري بالسعادة والاطمئنان فإن شاعرة أخرى هي روحه القلبية صورت هذا المعنى في قصيدتها التي أخذت العنوان نفسه "الأم" فالأم بسمتها وهدايتها وأنتها ومرشدتها في حالك الظلمات ، وفي قلبها عطف الوجود ، وهي التي تسمح دمعها

^(١) ديوان القروي : رشيد سليم الخوري ، الجمهورية العربية السورية ، وزارة الثقافة جـ ١ ص ٢٣٦

إذا قست الحياة ، وهي التي تسهر على راحتها إذا مرضت ، ولو استطاعت لافتدقها بنفسها ، وتدرع في نفسها الثقة بالله عز وجل . وتذكر الشاعرة أمر الله تعالى ببر الوالدين وتعلن الشاعرة أنها لو لم يكن تعرف إنها يعبد لعبدت الأم فهي نور الحياة ، لكنها مؤمنة عابدة لله تعالى ، ولذلك فهي طائعة لربها بارة بأمها وهي عاجزة عن التعبير عما تكنه نحو هذه الأم :-

من وحى قلبي من تألق ذاتي	من نبع وجداني سرت دعواتي
ووقفت في المحراب خاشعة وقسي	تجوى الدعاء همست في المسجدي
يارب صن أمني وسر سعادتي	يارب واحفظها بحق صلاحتي
من ذا الذي ادعوه غيرك حافظا؟	أمي الحبيبة اجمل المنحجات
هي بسمتي هي بهالمي هي مؤنسي	وهدايتي في احلك الظلمات
في قلبها عطف الوجود بأسره	كم ذلت برضاها عقيباتي
وبساعدين من الحنان تضمنني	فأكاد اسمع لهفة الخففات
نفسو الحياة فتسمح الدمع الذي	قد سال منهلا على الوجنات
وتحيله بيد الحنان بشاشة	تبدو كطيف النور في القسمات
وإذا مرضت جفا الرقاد عيونها	وتوسلت لله بالعبريات
وتذرعت بالصبر وهو سلاحها	في كل سائحة من اللحظات
تدري لو اعج ما بنفسي من أسى	وتحس بالإحباء دون شكات
مهما أحاول أن أداري لوعتي	فشعور أمني نافذ اللحظات

وتعكس الشاعرة إيمان تلك الأم وهي تبه في نفس ابنتها فتعيد إلى نفسها السكينة والهدوء لإحساسها بأن مدير الكون موجود يرعاها ويبارك خطواتها في لوحه هادئة فتقول

وإذا شكوت لها الحياة وما بها	ردت بإيمان وحلو أنشاة
إن الإله مدير الكون الذي	يرعى الخلاق يمنح البركات

هو وحده يرعاك من عليائه ويبارك الروحات والغدوات
فثقى بربك يا ابنتى لا تياسسى من رحمة الله العظيم الذات

وتتجه الشاعرة بالخطاب إلى ربها، إلى رب العزة، إلى من وهب الحياة في صورة الأمومة الممزوجة بالعطف والرحمة، ووصى بها في محكم القرآن، إنها تنفذ أمر الله تعالى، فهي نقديها بروحها وتبذل ذاتها لهذا الفداء * وهي تصوها في مقلتيها خوفا عليها من الردى، وهي تطيعها في الجهر والسر، وهي من شدة حبها لهذه الأم، لو لم تعرف ربها إنها يعيد لعبدت هذه الأم نورا للحياة، ولكنها عرفت ربها وعبدته وأطاعته في بر هذه الأم :-

يا من وهبت لنا الحياة أمومة ممزوجة بالتطف والرحمات
وبمحكم القرآن توصى دائما بالأم أذيتها وابذل ذاتسى
وأصونها في مقلتي من الردى وأطيعها في الجهر والخطوات
لو لم تكن ربى وسر هدايتسى لعبدت أسمى فهي نور حياتسى
لكننى يارب مؤمنة بممن خلق الحياة وأنزل الآيات

وفي نهاية القصيدة، تتحدث الشاعرة عن خلق الأمومة فهو رحمة ومحبة كالغيث ينهل فوق الربوات، وهو النسيم الذى يسرى فينعش روضتها وتتجه إلى أمها معتذرة أنها مهما فعلت فإن تؤدى شكرها ومهما قالت فإن تستطيع أن تعبر عما في نفسها:-

فمرى ألب إرادة قدسيمة أنا رهن ما تبدين من رغبات
أما عفو أن عجزت عن الوفا قد جل حبك عن مدى كلماتسى^(١)

وهكذا نرى شعراء العصر الحديث قد التفتوا إلى الأم في حياتها وبعد مماتها، وصوروا تلك الأم عطفًا وحنانًا، وهداية ونورا، واعترفوا بجميلها ويعظم

(١) ديوانك ابتهاجات قلب وروحى القليل ص ٨٨ طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٦٩م

أثرها ، وسجلوا لحظات الغربة ، والابتعاد والشدة والضيق والمرضى، كما سجلوا لحظات الفرح والابتهاج . ولعل هذه الاستشهادات المتواصلة ترد على من قال إن الشاعر لم يعرف أمه إلا بعد الموت بقصيدة يرثيها بها .

بعد رحيل الأم :-

من الشعراء من رثى أمه بعد موتها بقصيدة أودع فيها حزنه وحمه وبكى عطفها وحنانها وفقدتها، ثم سكت بعد ذلك، وهذا شأن كثير من الشعراء ومن الشعراء من ظلت الذكرى تؤرقه فيذكر أمه عاما بعد عام .

ومن هؤلاء الشعراء جميلة العاليلي عندما تذكرت أمها بعد عام من وفاتها وكان عيد الأم في غيبها مجسدا لهذا الفقد أيما تجسيد، فنهيج عاطفتها وتنشد قصيدتها التي تستهلها بقولها (العيد عاد ولم تعودى) وتروح تكرر هذه الجملة إحساسا بالفقد وتجسيدا لعدم العود . عاد عيد الأم ولم تعد هى، لم تعد الملهمة ، ولم تعد من كانت تغذى أحلامها بالسعادة، لم تعد من كانت الرى والشع وببت القصيدة:-

يا من ملأت بها وجودى	العيد عاد ولم تعودى
أين ملهمنى نشيبدى	الطير يشدو فى الخمائل
مستنزفا دمع القصيد	وارى فؤادى لاهذا
أسعدتها فى كل عيـد	وتغيب أحلامى التسي
فأين ساقية السورود	العيد عاد ولم تعودى
لى الطير من حب الحصيد	بل أين من كانت توا
أنى وكم لك من مزيد؟	بل أين أين وأين يسا
ولم أجد بيت القصيد ^(١)	إنى نظرت إلى الحياة

(١) نبضات شاعرة ص ٣١

وربما ظلت الأم ملهمة للشاعر بعد موتها يستجلى رأيها ، ويستلهم رشدها، ومن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد أحمد العزب في قصيدته "دروس من سيادة وطنية" (٢) والتي يقول فيها:-

أمي
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمني
أن الأكل أقل !!
فالأبيض ليس قطيع الغيم
وليس الأخضر ثوب العشب
ولكن الأكلان
تمارس هجرتها المختلفة
في تنهيدات القلب المبتل
أمي
ما زالت
رغم رحيل الجسد
تعلمني
أن الأكل
تحتل أنوثتها الأكل
حتى في غطسة المطر المنهل
وتعلمني
أن الممنوع الألف
يظل على شفيتها

(٢) قصيدته مخطوطة للشاعر محمد أحمد العزب

يحمل إغواءات اللامتنوع

يظل !!

أُمى

ما زالت

رغم رحيل الجسد

تعلمنى

أن التصفيق لموعظة السياف

يمل يمل ^(١)

وهكذا نرى تكرار المقاطع " أُمى ما زالت رغم رحيل الجسد تعلمنى ، فإذا كانت الأم قد رحلت بجسدها ، فما زالت باقية في تلافيف وحنايا عقل الشاعر وعاطفته تلهمه أن التصفيق لموعظة السياف يمل.

* **بين الأم والأب :-**

وأعط إياك النصف حيا وميتا . . . وفضل عليه من كرامتها الأمسا

أفلك خفا إذا أفنتك مثقلا . . . وأرضعت الدولين واحتملت نسا

وأفنتك عن جهد وأفك لذة . . . وضمت وشمتم مثلما ضم أو شما ^(٢)

أبو العلاء المعري

انقد حننا الدين الحنيف على البر بالأم والأب ، وأولى الأم مريدا من العناية، وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بما ثلاث مرات : **أملك ثم أملك ثم أملك ثم أبوك** ^(٣)

^(١) من قصائد مخطوطة بيد المؤلف

^(٢) نودم ما لا يلزم : المجلد الثاني ص ٤١٦ دار صادر بيروت

^(٣) الكامل للمبرد ص ١٩٨ ج ١ طبعه بيروت

ومن طريف ما يحكى عن معاملة الابن لأمه وأبيه ، ما رواه المبرد في كتابه الكامل (٠٠٠) حدثني شيخ من الأزد ثقة عن رجل منهم انه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تجمية . وسمع رجل يطوف بالبيت وهو يدعو لأمه ، ولا يذكر أباه ، فعوتب ، فقال : هذه ضعيفة وأبي رجل يحتال لنفسه .^(١) وهذا كلام قد يضحكنا من غفلة قائله وظنه أنه باستطاعة الأب أن يحتال لنفسه في الآخرة ، كما كان يحتال لنفسه في الدنيا ، ومع ذلك فهو يدل أيضا على تفضيل الأم على الأب في الصورة الثانية ، وفي الصورة الأولى يفضل أباه على أمه . وقد رأينا هذه الصورة وتلك في رثاء الأم : ونجد بعض الشعراء يرتفع بمزلة الأم في شعره ، ويؤكد على دورها في حياته ، ومزلتها التي تعلو على مزلة الأب على أنه عندما فقد أباه لم يشعر بيتم ، ومع ذلك عندما ماتت الأم أحس عندها باليتيم :-

فقدت أبى طفلا فلم أدر ما الأنسى وأفقدتها كهلا فهد الأنسى عزمى^(٢)
وهى حالة خاصة به ، لأنه يشير إلى أنه فقد أباه صغيرا ، لم يكن على وعى فلم يحس ساعتها بخسارة ولكنه عاش وكبر مع أمه وذاق حنانها ولذا أحس باليتيم ومن هنا يعقب الشاعر بعد هذا البيت بقوله :-

سلونى أحدثكم عن اليتيم بعدها فإن اليتيم الكهل اعرف باليتيم
ومع ذلك فهو يوضح قيمتها عنده فهي الأب والابن والخال والعم :-
فإن قلت يا أماه أغناتى اسمها عن الأب والأبناء والخال والعم

ونجد كذلك الشيخ سيد قطب رحمه الله وهو يؤكد على دور الأم ، فقد مات الأب فقامت الأم بدورها خير قيام ، ولم يشعروا بموت الأب ، وعندما ماتت الأم وساعتها فقط ، أحس الابن أنه فقد أباه وأمه ، وأن أباه قد مات اليوم بموت أمه

(١) الرسالة : العدد ١٢٨ ص ٢٠٢٧

(٢) المرجع السابق

" اليوم فقط مات أبي، واليوم فقط أصبحنا شتيئا منشورا وإن لأخسب اليوم إلى صدرى ابنكما وابتئكما • أضمهم بشدة لأستوثق من الوحدة ، وأشعرهم بالرعاية ، ولكن هيهات هيهات

فأنا وهم بعدك أيتام يا أماه (٣)



الفصل الثاني
صور فنية

.

.

.

.

.

.

.

صور فنية :-

حفلت قصيدة الرثاء في العصر الحديث بالصور الفنية الجديدة غير التقليدية، فإذا كان الشاعر في قصيدة الرثاء يعبر عن حزنه بصورة واضحة وصريحة، باليكاء والدموع والحزن فإن بعض الشعراء قد سلكوا طرقاً أخرى للتعبير عن حزنه.

* مشاركة الكون للشاعر في أحزانه :-

لقد طلبت الخنساء من بنى سليم بكاء فارسهم :-

بنى سليم إلا تبكون فارسكم

.. خلا عليكم أمورا ذات أمراس^(١)

والشاعر في قصيدة الرثاء في العصر الحديث يطلب من الكون أن يكون حزينا، ولكنه لا يطلب ذلك بصورة مباشرة كما فعلت الخنساء، إنه يستنكر أن تموت أمه والناس جامدون صامتون، والكون يسير كما هو والشمس تشرق كما هي. وقد عبر عن ذلك الشاعر محمد العزب في رثاء أمه وهو يسوق الخبر في مطلع القصيدة بكلمات موجزة "أمي ماتت" وهذه الحقيقة التي ساقها توجب من وجهة نظر الشاعر أن يحزن الكون كله من حوله، فيا لهول ما رأى الشاعر، إنه يحدق في عيون الناس فلا يبصر حزنا. إنه لا ينظر ولا يتأمل ولكنه يحدق ويدقق، إنه يرجع البصر

(١) ديوان الخنساء ص ١٤٨

كنتين غير مصدق أن تكون الناس بهذه القسوة، فما أفسى تلك العيون التي لا تتعاطف مع بعضها فتبكي أحزان الناس، وسمائم الجارة تمضى ولا تلوى على شئ، وهو يمزغ تلك

الكلمات الذابلة التي فقدت معناها " ماتت ... متنا " والناس يسمعون ولا يتأثرون ولا يتعاطفون، وه بتمتم شيخ تلجي الإحساس: أجل يرحمها الله، ويتعجب الشاعر من برودة المشاعر وجمود الأحاسيس، وينقل إلى مرحلة أخرى هي استجداء هذا التعاطف من الآخرين، حتى ولو كان تعاطفا مزيفاً، طالما اختفت العاطفة الحقيقية بين بنى البشر.

فلنكن كلمات المجاملة الزائفة " يا شيخ تألم لى " تعاطف معى، تجاوب مع أحزاني، فإن لم تستطع فتظاهر بهذا، إن لم يكن من قلبك فلنكن كلمة من شفتيك وليس من قلبك وصميم وجدانك " صعد حتى من شفتيك الأه " ثم يدين الشاعر روح العصر الجامدة الخالية من التعاطف " ما أفسى قلبك ما أقساه، ويعود الشاعر من دفن الأم وهو منفصل عن الكون غارق نسي أحزانه، نوافذه وحدها غارقة فى ليل مصلوب أتم، ولكن نوافذ الجارات راقصة لا تحس بمأساة الشاعر، نوافذ الجارات راقصة بساتائر بيضاء يلاعبها الريح، وقد هم الشاعر أن يصرخ فى تلك النوافذ طالباً منها بعض التعاطف، ولكن تجربته السابقة مع هذا الشيخ الثلجي، الإحساس جعلته يحجم، كاد يصيح فى تلك الساتر الراقصة :- ألا تبصرون سناننا سوداء ؟ ألا ترون ما نحن فيه من حزن ؟ بعضاً من حزن، فالبيت جريح.

ويصرخ الشاعر في نهاية قصيدته، رافضاً هذا الجمود، وذاك الخواء
العاطفي والتباعد والتنافر فهو يبدو في زحمة كل الناس وحيداً، بين بنى
البشر، الكل سيقى هذا المصير، نحن لسنا بدعا في هذا الأمر، الكل يباب،
الكل يباب

" أمى ماتت " !!

لكن حمام جارتنا تمضى عنى

مثنى مثنى

وأنا أتحسى كلمات ذابطة الوجه بلا معنى !!

ماتت ... مثنى !!

ويتمتم شيخ تلجى الإحساس :

أجل .. يرحمها الله !!

يا شيخ تألم لى

صعد حتى من شفتيك الاله !!

ما أقسى قلبك .. ما أقساه !!

وتعود مع الشفق الغارب

أطلال جدار منهار !!

ضيعة الكنز وعدنا نيكى لك الأبطال !!

الأفق بليد !!

والليل الجائهم فوق الأرض وأنا .. ألهى ألف بليد !!

يا حبيبالى ...

إني أبدي في زحمة كل الناس على الدرب وحيد !!
 في قلبي الذابل من همس الظلمات الغائمة فحيح !!
 وصدى من هول المأساة ذبيح !!
 وتلوح نوافذنا غرقى في ليل مصوب أقتم !!
 ليل تتلوى فيه بلا نبض أبدا روح الماتم !!
 لكن نوافذ بيت الجارات هناك ...
 ترقص ذهلى ...
 يستأثرهن البيضاء اللاعبة على صدر الريح !!
 فأكد أصبح :
 يا كل ستأثرهن ألا تبصرن ستأثرنا سوداء ؟
 بعضا من حزن
 فالبيت المطرق في حضن المأساة النازفة جريح !!
 هل ترقص في أوج المأساة ؟؟
 لكن الريح .. وعرس الريح ...
 ونوافذ بيت الجارات ...
 ترقص ذهلى !!
 وكان علينا قد كتبت مأساة الموت !!
 وكان عليهم أن يحيوا ليذفروا أعراس الموت !!
 يا كل نوافذ قريتنا !!
 يا كل نوافذ عالمنا !!

أبدا لن تفتح نافذة بعد الصبيحة !!

الكل يباب

الكل يباب ^(١)

ونلمح من قول الشاعر :

إني أبكو في زحمة كل الناس وحيد

عمق المأساة التي نعيشها في هذا العصر، بعد أن اختفى التعاطف مع الآخرين، وسرت البرودة في أعماق العلاقات الإنسانية، وقد وظف مأساته لمناقشة هذه الظاهرة والتأكيد على ضرورة التعاطف فأنا اليوم وأنت في الغد، كل نوافذ العالم حتما إلى فناء .

* التشخيص :-

وهو ملمح آخر في قصيدة الرثاء قامت به الشاعرة نازك الملائكة في رثاء أمها، وكما تقول هي، تبرير ذلك " قد يكون الشعر بالنسبة للإنسان السعيد ترفا ذهنيا محضاً، غير أنه بالنسبة للمحزون وسيلة حياة، وقد كانت القصائد الثلاث التالية محاولة للتعزى لجأت إليها على إثر وفاة أمي في ظروف محزنة، عانيت منها معاناة خاصة، ولم أجد لألمي منفذاً أخيراً غير أن أميه وأغنى له (^(١)) وقد شخصت الشاعرة هذا الحزن وغنت

(١) الأعمال الكاملة : شعر : دكتور محمد أحمد العزب ص ٦١٧

(١) ديوان نازك الملائكة : المجلد الثاني ص ٣٩

له، وجعلته مرهفا هادئا حزينا خجولا، يجرحه النوح ويضيئه العويل. هو في حاجة إلى الصمت والسكون، والتشخيص ليس خاصا بقصيدة الرثاء عند نازك الملائكة، ولكنها في قصائد أخرى (تصور الربيع شيخا مرحا "ذا ثياب خضر ووجه بديع يناديه عشاق الربيع أن ينهض من غفوته ليحسب الحقول فيمسحها بخضرته ونضرتة" ^(١)) وليس التشخيص هو الجديد عند الشاعرة، وإنما تشخيص الحزن في صورة طفل صغير حزين، وقد كان هذا التشخيص مصدر إلهام للشعراء. بعد ذلك (فقد شاعت هذه الصورة عند كثير من الشعراء بعد ظهور قصيدة نازك، وأصبح الحزن طفلا، والحب طفلا، وما أكثر القصائد التي كتبها شعراؤنا واستخدموا فيها هذه الصورة، ومن هذه القصائد قصيدة معروفة لصلاح عبد الصبور ... وهي قصيدة طفل " وفيها يصور صلاح عبد الصبور قصة عاطفية انتهت إلى الفشل، ويختار لهذه العاطفة المنهية صورة " **طفل ميت** " ويبني قصيدته البديعة كلها " على هذا المعنى، وأغلب الظن أن أصل الصورة عند صلاح عبد الصبور هو طفل نازك الملائكة، وقد تأثر بها صلاح واستخدمها بعد ذلك بطريقته الشعرية الخاصة ^(٢)

^(١) قوافي الحب والشجن: كتاب العربي الثاني والأربعون، أكتوبر ٢٠٠٢ م ص ١٨

^(٢) ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء : رجاء النقاش ص ٢٠٠ دار سعاد الصباح للطباعة الأولى سنة ١٩٩٢م

الرثاء والتصنيع :-

قد يفجع الإنسان عندما يوازن بين قصيدة المتنبي في رثاء والده سيف الدولة وقصيدة الشاعر في جدته، ليكتشف الجودة الفنية في القصيدة الأولى أعلى من القصيدة الثانية "فمرثيته في جدته لم تصل في نضجها الفني إلى ما كانت عليه في والده سيف الدولة فلم يهتم الشاعر بصنعتة الفنية في مرثيته الذاتية قدر اهتمامه بمرثيته أم سيف الدولة" (١) وأقول قد يفجع الإنسان عند الموازنة بين القصيدتين لأن الأمر المتوقع هو إجادة المتنبي في رثاء القريب أكثر من إجادته في رثاء الغرباء، نتوقع إجادة المتنبي في شعره (في رثاء قريب له، أو في رثاء من جمعه به صداقة وطيدة، وكانت له معه ذكريات استظل فيها بالسعادة، ونعم بآثار الصداقة . وكما قلنا فإن جدة المتنبي هي التي حظيت دون أقربائه بذكرها في شعره راثيا لها ومتجعجا عند موتها، فقد كان يحبها وكان حريصا على لقائها بعد طول غياب (١)

والرثاء يتسع للحقيقة وحديث العقل أكثر من حديث الخيال (٢)

وقد قلت الصور البيانية عند المتنبي عندما سيطر الحزن عليه (وواضح أن الصورة البيانية قد قلت بصورة ملحوظة فقدعان الحزن

(٢) صورة المرأة في الشعر العباسي د علي أبو زيد ص٣١٢ دار المعارف سنة ١٩٨٣م

(١) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي د / طه أبو كريشة ص١٥٧ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨م

(٢) المرجع السابق ص١٥٩

صادقاً . ولذلك كان التعبير أقرب إلى الواقع وإلى البساطة لأنه أبلى من كل خيال، ومع ذلك فإنه حين فرغ من سرد هذا الواقع وهدأت انفعالاته نراه يعود إلى التصوير البياني....^(٣)

وعباس للعقاد يشير إلى الصحيح والزائف من الشعر، وقارن بين قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده محمد وبين قصيدة ابن نباتة في رثاء ابنه عواصفاً شعر ابن نباتة بالزائف، لوجود التورية والتلاعب بالألفاظ وذلك في قوله :-

قولوا فلان قد جفت أفكاره مخايل للخير مرجوه
هيهات نظم الشعر منه بعدما سكن التراب وليده وحبيه

وهو يصنع تورية بقوله " وليده وحبيه " إشارة بالوليد إلى لقب الباحث وحبيه إلى لقب أبي تمام . مشيراً إلى أن مثل هذه المحسنات في الرثاء يمزج فيها الشاعر بين ألم التكل وعيب التورية والتنميق (وأنكر منها ما أنكر من رجل أذهب إليه لأعزيه في ولده يستقبل المعزين بأكل النار واللعب بالبيض والحجر وغير ذلك من ألاعيب الحواة، وأنكر منها ما أنكره من رجل يزوق وسائل النعي أو يكتبها على دعوات الأفراس، ويخيل إلى أن ابن نباتة هذا كان يتربص بابنه الموت ليلعب في مأتمه هذا اللعب الصبياني العقيم)^(١).

^(٣) المرجع السابق ص ١٦١

^(١) ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد ص ١١١ . بيروت

وقد يمتلك الشاعر القدرة على هذا التصنيع والتلوين، ولا يكون على حساب تجربته، والمهم هو هل أحسننا بهذا التصنع أم لا ؟ والذي لا شك فيه أن شيئاً من هذا التصنع الذي يصل إلى حد التكلف قد جاء في قصيدة الرثاء في العصر الحديث، وهو تكلف نحسه ونلمسه في القصيدة .

فمن ذلك :- قول الشاعر :-

هي الأم سر لست تعرف كنهه^(١) وإن خلقتها في صورة الدم واللحم
يقولون فانتظر رسمها بعد موتها فقلت لهم في الرسم أمي لا الرسم^(٢)

فنحن نرى الشاعر قد جاء بالرسم في مقابل الرسم ليجانس بين الكلمتين، والتصنع أو اللعب بالألفاظ ظاهر في البيت كله، وما رأينا أحداً في الدنيا يعزى إنساناً فيقول له إن الصورة والنظر إليها تغني عن الأصل، عندك صورتها ففيها الغناء، ولكن الشاعر أتى بالبيت كله تكلفاً ولعباً بالألفاظ وقد أحسننا بهذا التصنع والتكلف، لا لوجود الجناس وتكلفه، ولكن لأن الشاعر لم يمتلك القدرة على توظيف هذا الجناس في مكانه بحيث يبدو طبيعياً في موضعه لا نحس بقلقه، وقد جاء البديع في قصائد شعراء آخرين، ومع ذلك لم يأت بهذا التكلف، ومن هذا القبيل قول الشاعر :-

يا من نعمت ببرها وحنانها ووجدتها في الحر ظلاً ساجياً

(١) الرسالة : ص ٢٧، من السنة الثالثة سنة ١٩٣٥م المجلد الثاني العدد

لما اختفى مصباح وجهك أظلمت في عيني الدنيا وضقت بمابيا
أشهى الطعام أراه مرا في فمي أنكرت أيامي وعفت حياتي (١)

وكذلك قول الشاعر :-

إذا ضحكت زهوا إلى سماؤها بكيت الندى في الأرض والبأس والحزما (٢)

فمع وجود هذا الطباق عند الشعارين في " الحر والظل " و " مصباح وجهك أظلمت "، وأشهى الطعام مرا، وضحكت وبكيت، فإن هذا الطباق وظف لرسم صورة الشاعر قبل موت أمه وبعد موتها فأدى وظيفته دون قلق أو تكلف .

*المعارضة والتصنع :-

من شعراء العصر الحديث من رثى أمه بقصيدة ما، فراح يعارض شاعرا آخر سبقه في هذا المجال .وعلى سبيل المثال، يحمل البيرق إلى الشاعر أحمد شوقي في منفاه نبأ وفاة أمه، فيحزن عليها حزنا شديدا ويرثيها ويكيها بقصيدة أنكا فيها على المتنبي معارضا إياه . والمفروض أن تستغرق الشاعر في رثاء أمه تجربته تماما وينفعل بها فتأتي قصيدته من وهج هذه التجربة، ولكنه قد (يستوحى ذاكرته وينتفع بمخزوناتا فهو يحصر نفسه في عمله الأدبي - بين تجربته الطارئة وبين

(١) ومضات فكر ونبضات قلب ص ١١٤

(٢) ديوان شوقي ج ٢ ص ٥٣٢

تراثه الذي يتكون من أخلاط ويتجمع من أشتات .. ينساب من بين طوايا ذاكرته استجابة لحاجته الطارئة دون أن يعرف من أين يأتيه ولا أن يدري مصدره ^(١) . ولكننا نشك أن يقف الشاعر في معارضته عند هذا التيار الهادئ الذي ينساب من بين طوايا وتلافيف الذاكرة، استجابة لتلك الحاجة الطارئة دون وعي من الشاعر أو إدراك. نشك في إخلاص الشاعر لتجربته ومعاناته لها وهو مشغول بالمعارضة ومشغول بالتقليد، إلا إذا وقف المعارض أمام البحر والقافية والموضوع فقط ولم ينشغل بالقصيدة برمتها ولا بمعانيها ولا بمعانيها ولا بطريقة عرضها والبناء الفني لها كما فعل عزيز أباظة في رثاء زوجه عندما قال :-

ذكرتك عند كل جليل أمر	وكل بسيرة فيكيت نفسي
إذا سكب الصباح فأنت همي	وإن سكن المساء فأنت أنسى
جمعت على الهوى طرفي نهاري	كأنني لم أرع بنواك أمسى ^(٢)
وقد عارض بتلك القصيدة البحتري في وصف إيوان كسري :-	
صنت نفسي عما يدنس نفسي	وترفعت عن جدا كل جيس ^(٣)

(١) المعارضة في الأدب العربي د / إبراهيم عرويين ص ٦٤

(٢) أنات حائرة : عزيز أباظة ص ٣٢

(٣) ديوان البحتري ج ٢ ص ١١٥٢

ومع ذلك لم يتعد تأثر الشاعر بالبحثري . الوزن والقافية ولم يؤثر على تجربته ولا عاطفته ولا قصيدته - وقد عارض شوقي المتنبي فماذا فعل ؟

لقد ترسم شوقي خطى المتنبي في هذه القصيدة خطوة (ويبدو أن شوقي أحس حين وصله نعي أمه بالشبه الكبير بين ظروفه وظروف المتنبي، فكل منهما شاعر يقيم بعيدا عن وطنه وعن أسرته، وكما خلف المتنبي جدة عجوزا في الكوفة خلف شوقي في مصر أما مريضة، وإذا كان فرح جدة المتنبي بعودة حفيدها أكبر من احتمال أعصابها الخائفة، فإن أم شوقي لما بلغها إعلان الهدنة وتوقعت عودة ولدها طغى عليها الفرح ولم تقو على احتماله فحمت وماتت)^(١)

ومن هنا فقد عارض شوقي المتنبي لا أقول في قصيدة ولكن في كل بيت من أبيات قصيدته حتى لتكاد الألفاظ في كل بيت تتشابه .

^(١) المعارضة في شعر شوقي د / إبراهيم عوضين الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢ ص ١٧٩

فإذا بدأ المتنبي قصيدته بقوله :-

ألا لا أرى الأحداث حمدا ولا ذما فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

بدأ شوقي قصيدته بالطريقة نفسها :-

إلى الله من مطعونة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما

قال شوقي :-

لك الله من مطعونة بقنا النوى شهيدة حرب لم تقارف لها إثما

وإذا قال المتنبي :-

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى

قال شوقي :-

إلى حيث آباء الفتى يذهب الفتى سبيل يدين العالمون بها قدما

وإذا قال المتنبي :-

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهنتى لم تزدنى بها علما

قال شوقي :-

زجرت تصارييف الزمان فما يقع لى اليوم منها كان أمس لى وهما

(ويذكر المتنبي أثر كتابه فى نفس جدته فتحس الصدق فى تصويره

واستقبالها للكتاب ودهشتها التى جعلتها تكرر النظر المرة تلو المرة

متفحصة خط حفيدها ولفظه وكأنها تستمد من ذلك ما يمنحها الطمأنينة، ثم تعود فتلثمه بفيها وتضعه فوق عينيها، ويتكرر المشهد حتى يظهر أثر المداد في وجهها. هذه الصورة الحية ما نفخ فيها الحياة إلا صدق الشاعر في عاطفته وواقعيته في تعبيره. أخذ هذه الصورة شوقي فنكر أثر البشير في نفس أمه بحيث لا يكاد يشعر بأنّها فهمت عنه ما ألقى إليها من أنباء، فالبشير سقاها النبا وهي ذاهلة باكية فسقطت بين يديه :-

سقاها بشيري وهي تبكي صباية فلم يقو مغناها على صوبه رسما^(١)
وإنما جمّت هذه الصورة لدى شوقي خلوه من العاطفة التي تحقّق للتجربة الحياة. والمتنبّي يتحسر على موت جدته في غيبته دن أن يودعها ولا يشيعها حتى قبرها فيقول :-

وما اندست الدنيا على لضيقها ولكن طرفا لا أراك به أعمى
فوا أسفى ألا أكب مقبلا لرأسك والصدر الذى ملنا حزما
فيترسم شوقي خطاه، ويتأسف لموت أمه وحيدة دون أن يشيعها هو وأولاده فيقول :-

فيا حسرتا ألا تراهم أهلة إذا أقصر البدر التمام مضوا قدما
رياحين في أنف الولى ومالها عدو تراهم في معاطسه رغما

(١) المعارضة في شعر شوقي: ص ١٨١

وألا يطوفوا خشعا حول نعشها ولا يشيعوا الركن استلاما ولا لثما
 وإذا افتخر المتنبي بنفسه في قصيدة الرثاء فقال :-
 تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالفه حكما
 ولا سالكا إلا فؤاد عجاجة ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
 يقولون لي: ما أنت ؟ في كل بلدة وما تبتغي؟ ما ابتغى جل أن يسمى
 قال شوقي :-

وكنيت إذا هذى السماء تخالبت تواضعت لكن بعدما فتحها نجما
 أتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لأخلق الكرام به نظما
 ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما
 ومن هنا فقد جاءت قصيدة الرثاء عند شوقي وقد خلت من العاطفة
 ولم يحلق فيها بل كان مقلدا للمتنبي، (وأقدم على نظم القصيدة معتمدا
 على النموذج الذي يحاكيه، ظنا منه أن هذا يكفي في إضفاء الشاعرية
 على ما ينظم، بينما هو يضيع ما يعن في ثنايا ذلك من نبضة قد تأتي
 مصادفة وهكذا تقضى المعارضة على الروح الشاعرة حين تستبد
 بالشاعر ويفقد شخصيته في نمودجه، والفارق كبير بين شاعر يترك
 الزمام لعاطفته تندمج مع أفكاره، فتبرز أبيات الشاعر حية نابضة وبين

شاعر ينزل المعركة مجردا من العاطفة، ثم يسلم نفسه إلى نموذجه
مترسما كل خطاه^(١)

ومن هنا فقد طغت المعارضة على قصيدة شوقي فخدمت العاطفة في
قصيدة رثاء لأم كان من المفروض أن يحلق فيها إلى ذروة الإجادة

والتوفيق. ولا يتصور الإنسان شاعرا يأتيه خبر وفاة الام وهو في
غريته وحيدا منفيا فيروح يرثيها، فيبحث عن شاعر قديم مرر بالتجربة
نفسها فيعتمد عليه ويقيس على مثاله. وإنما الذي نتصوره أن شوقي ألجمه
الحزن وأخر سته المفاجعة، فسكت زما حتى خمدت عاطفته فراح ينشد
قصيدة في المناسبة محتذيا أستاذه المتنبّي عوضاً عن عاطفته التي خمدت
في تلك الفترة التي سكّت فيها. وهذا التصور إن صح وأظنه صحيحاً -
كانت المقولة التي قدم بها أحمد الحوفي لقصيدة شوقي في رثاء أمه غير
دقيقة وذلك في قوله (نظم شوقي هذه المراثية وهو في منفاه بالأندلس على
إثر إعلان الهدنة سنة ١٩١٨م إذ كان يعلن نفسه بالعودة إلى مصر ولقاء
آله والسعادة برؤية أمه. ولكن البرق قطع عليه هذا الأمل حينما نعى إليه
أمه فحزن أشد الحزن ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المراثية^(٢))

^(١) المعارضة في سفر شوقي ص ١٨٦

^(٢) ديوان شوقي ج ٢ ص ٥٣٢

فهذه ليست عاطفة الشاعر الكبير بعد ساعة من معرفته بخبر وفاته
أمه، ولكن الأرجح والأقرب للقبول أنه نظمها بعد أن خمدت العاطفة
وهدأت النفس فراح يتكأ على الآخرين .

الأوزان :-

الوزن : هو جوهر الشعر وأساسه، فهو أعظم أركان الشعر وأولها
خصوصية، كما يقول ابن رشيق (١)

ومع الاتفاق على أهميه الوزن بالنسبة للشعر، فإن السؤال الذي يترتب
على هذا هو : هل يختلف الوزن باختلاف المعنى ؟ وهل تحتاج كل
عاطفة إلى لون معين من الموسيقى والوزن يضبط هذه العاطفة، أو تصاغ
فيه هذه المعاني ؟

لقد أشار ابن العميد إلى هذه الصلة بين المعنى وبين الوزن
الشعري، وبين أن من المعاني ما هو جاد أو حار، أو جياش أو
صاخب، فلا يؤدي إلا بنفس طويل ولا يلائمه إلا الأعاريض
الطويلة، ومنها ما هو دقيق أو هادئ أو ماجن أو راقص فيجب أن يصاغ
في تفاعل تناسيه.

ولأمر ما قالوا إن الرثاء يحسن جدا في بحر الطويل، ولأمر ما
شاعت الأوزان القصيرة عند المحدثين . ويعلق المرحوم الأستاذ طه احمد

(١) العمدة : ج ١ ص ١٣٤

إبراهيم على فكرة ابن العميد بقوله (ولست أدري أهذه الفكرة من عند ابن العميد أم لها نواة وأصل من عهد الخليل بن احمد)^(٢)

ويؤكد الأستاذ طه احمد إبراهيم على العلاقة بين المعنى والنظم عندما يقول: فمن الأفكار ما هو جاد طويل النفس، له جلال ورهبة، ومثل هذه توضع في بحر له تفاعيل عدة تقبل ما يصب فيها من المعاني فالرثاء والنظرات في الكون وأشعار الشكوى والتألم أحسن ما تكون في بحر الطويل^(١)

وينفى الدكتور إبراهيم أنيس هذه الصلة بين المعنى والوزن مؤكدا إمكانية وجود صلة بين حالة الشاعر وقت الإنشاء وبين الوزن الذي يختاره، فاستعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرا بمثل هذا التحيز أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه، فهم كانوا يمدحون ويفخرون أو يتغزلون في كل محور الشعر التي شاعت عندهم. ويشير إلى المعلقة التي قيلت في موضوع واحد تقريبا ونظمت من الطويل والبسيط والسريع والخفيف، ويؤكد على أن الاتفاق في الموضوع لا يعنى بالضرورة الاشتراك في العاطفة، فالحالة النفسية للخنساء حين كانت تراثى أخاها غير النفسية التي تملك أصحاب المراثي من القدماء فالمعول عليه هو حال الشاعر وقت الإنشاء، فإذا قيل الشعر وقت المصيبة والهلع تأثر بالانفعال

^(٢) تاريخ الفقد الأدبي عند العرب ص: دار الحكمة بيروت

(٢) المرجع السابق ص ١٣٥

النفسي وتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفس وازدياد النبضات القلبية، ومثل هذا الرثاء الذي ينظم ساعة الهلع والفرع لا يكون عادة إلا في صورة مقطوعة قصيرة لا تكاد تزيد أبياتها عن عشرة. أما تلك المراثي الطويلة فأغلب الظن أنها نظمت بعد أن هدأت ثورة الفرع واستكانت النفوس باليأس والهم المستمر^(٢)

وقد توصل صاحب كتاب "رثاء الأبناء في الشعر العربي" إلى إن فكرة الربط بين الموضوع وبين بحر معين فكرة خاطئة، ولاحظ من خلال الإحصائية التي قام بها إلى أن شعراء رثاء الأبناء نظموا قصائدهم على مختلف البحور الشعرية، مع اختلاف النسب في ذلك، كما لاحظ من خلال الإحصاء أيضا أن مقولة الدكتور إبراهيم أنيس، إن الشعر وقت المصيبة والهلع يتطلب بحرا قصيرا يتلاءم وسرعة النفس وازدياد النبضات القلبية. ومثل هذا الرثاء الذي قد ينظم ساعة الهلع والفرع لا يكون عادة إلا في صورة مقطوعة قصيرة، لاحظ أن النصوص تقول غير ذلك.^(١)

ويربط الدكتور طه أبو كريشة بين حالة الشاعر وبين الأوزان المخصصة عندما يتحدث عن قصيدة المتنبّي في وصف الحمى فيقول ويرتبط بالصياغة في القصيدة الحديث عن التشكيل الموسيقي لها، فمن ناحية الوزن نرى أن القصيدة من الوافر (مفاعلتن مفاعلتن مفاعل) في

(٢) موسيقى الشعر : إبراهيم أنيس ص. الطبعة الخامسة

(١) رثاء الأبناء في الشعر العربي د/ غير صالح موسى. مكتبة المنار الطبعة الأولى

شطر كل بيت منه، وبحر الوافر من البحور الواثبة المتحفزة إن صح التعبير، ومن هنا نجده أصلح البحور لكي يصور انفعالات القلق والضيق والتبرم تصويراً موسيقياً، إذ إن السرعة في تفاعيله تناسب تقلب انفعالات القلق والضيق والتبرم والضيق والتبرم والضيق والتبرم تصويراً موسيقياً، إذ إن السرعة في تفاعيله تناسب تقلب انفعالات القلق الشاكي وما يصحب ذلك من تمللى وعدم استقرار^(٢)

ويشير بعد ذلك إلى إمكانية التغيير في البحر ذاته بما يصيبه من زخافات قد يصور انفعاله، أو يقلل من هذا الانفعال وذلك حين يقول (ولذلك نرى المتنبي لا يأتي بالعصب في الأبيات التي لا يريد أن يصور فيها سرعة انفعاله فيلجأ إلى الموسيقى البطيئة كما تـرى ذلك في قوله :-

يضيق الجلد عن نفسى وعنـها فتوسعه بأنواع السقام

حيث جاءت التفعيلة الثانية في الشطر الأول، والأول في الشطر الثاني بدون عصب وذلك لأن نفسه يثقل عليه حين تضغط عليه الحمى، كما أنه يحس بوطأة الحمى على الجلد فتوسعه، وهذا يستلزم إبطاء في الحركة والتصوير ... أما الانفعال السريع الذي يستلزم موسيقى سريعة فإنه يلجأ إلى إدخال العصب في بعض التفاعيل لكي يحقق هذه السرعة^(١)

(٢) في ميزان النقد الأدبي ص ١٣٢ د طه أبو كريشة، القاهرة سنة ١٩٧٦م

(١) في ميزان النقد الأدبي د طه مصطفى أبو كريشة ص ١٣٢

وهو يشير إلى شيء من الأهمية بمكان، إذ كيف يطوح البحر ليناسب السرعة والهدوء في الوقت نفسه، وهنا تأتي الزحافات والحذف في تفعيلات البيت أو يأتي الإيقاع الداخلي ليهدأ من سرعة الإيقاع أو يغير من حركته

ويشير الدكتور على على صبيح في حديثه عن الوزن إلى أنه يكاد يجمع النقاد قديما وحديثا على أن الرثاء يتناسب معه البحر الممتد والوزن الطويل لأن الامتداد والطول يتفق مع شدة الحزن، ويرى أن كل ما يتصل بالحزن من الفشل والعجز والشعور بالضعف أمام القوة الخالقة والمصيرة للعالم، كل ذلك يلحق بالرثاء، لأن كثرة الماديات تناسب الإعياء والاسترخاء الذي يحل بالجسم نتيجة الصدمة الطاعية ويتلاءم مع الفتور الذي يهلهل النفس ويحطم قواها فتلهث بأنفاس حائرة ممتدة... ومع ذلك يلاحظ على ابن الرومي في الرثاء أنه لا يلتزم هذا المبدأ النقدي بل يخالفه أحيانا، وقد علل لذلك بأن عبقريته في التصوير تستطيع أن تشكل في البحر الواحد إيقاعات مختلفة، يتناسب كل إيقاع مع معنى يناسبه^(١)

ونخلص من آراء السابقين إلى أن المعول عليه ليس هو الموضوع الذي يتحدث فيه الشاعر، ولكن المعول عليه هو انفعال الشاعر بالحدث، ومدى شدة هذا الانفعال أو هدوئه، وذلك في قصيدة واحدة وفي موضوع واحد .

(٢) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر د على على صبيح ص ٢٤٤

ومع أن الموضوع هنا واحد وهو رثاء الأم، فقد لاحظت الدراسة اختلاف الوزن من شاعر إلى آخر بل إن شوقي يبكي جدته بقصيدة من بحر الوافر، وقافييتها **الناء، مطلعها :-**

ويبكي والدته بقصيدة أخرى من بحر آخر وهو بحر الطويل وقافيتها الميم مطلعها:

ليتناصب مع عاطفته صعودا وهبوطا، ولذلك ينبغي أن تدرس كل قصيدة على حده فالقصيدة تحكمها ظروفها، ولا تحكم القصيدة بقوانين مسبقة لم تراع ظروف القصيدة . وقد نظم من بحر الطويل كل من الشاعر أحمد شوقي في رثاء والدته، معارضا المتنبي في رثاء جدته، وكذلك العقاد في قوله :-

فزعّت لخطب الموت والموت واحد.. فكيف احتمالي فيك مرتين يا أم^(١)

(۳) دیوان شوقی ج ۲ ص ۵۳۲

(¹) ديوان العقاد ج ٢ ص ٩١٥ طبعه بيروت

وكذلك الشاعر محمد الهراوي :-

تكشفت الأحداث بعدك يا أمي .فيا طول طول ما أبقى من الحزن والهم^(٢)

وكذلك ابن الرومي في رثاء أمه ومطلع القصيدة :-

أفيضنا دما إن الرزايا لها قيم فليس كثيرا أن تجود لها بـدم
ولا تستريحا من بكاء إلى كرى فلا حمد ما لم تسعداني على المسأم^(٣)

وكذلك كشاجم في قوله :-

أبعد مصاب الأم ألف مضجعا وأوى إلى خفض من العيش أو ظل
سترضع عيني قبرها من دموعها بما كلفته من رضاعي ومن حملي^(١)

ومن بحر الوافر تأتي قصيدة شوقي في رثاء جدته، وكذلك أبو فراس

الحمداني في رثاء والدته :-

أيا أم الأسير سفاك غيث بكره منك ما لقي الأسير
أيا أم الأسير سفاك غيث تخير لا يقيم ولا يسير^(٢)

وكذلك المعري في رثاء والدته :-

سمعت نعيها صمي صمام وإن قال العواذل لا همام

(٢) الرسالة ص ٢٢٧ من السنة الثالثة العدد ١٢٨

(٣) ديوان ابن الرومي ج ٦ ص ٢٢٩٩ .تحقيق د حسين قاسيا

(١) ديوان كشاجم : ص ٣٢٨ تحقيق د النبوي عبد الواحد شعلان

(٢) ديوان أبي فراس . ص ١٦٣ رواية ابن خالويه . دار صادر بيروت

وأمتنى إلى الأحداث أم يعز على أن صارت أمامي^(٣)
ومن تفعيلات بحر الكامل جاءت قصائد الشعراء، خليل عبده مطران
في رثاء جدته :-

يا ترب عسرك بيتي في رحمة المتعالى
حييت خير حياة وألت خير مـال^(٤)
وقصيدته في رثاء أمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظامم النعم
عشنا زمانا وهى قسمتنا وغناؤنا عن سائر القسم^(٥)
وكذلك قصيدة الشاعر إبراهيم عبد الفتاح :-

يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا قد كنت يوما من حياتي قاسيا
شيعت فيك حنان أمي للثرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا^(٦)
وكذلك قصيدة ابن سنان الخفاجى :-

أبكىك لو نهضت بحقق ادمع وأقول لو أن النوائب تسمع
لا يغبطن على البقاء مرزأ إن المودع إلفه لمودع^(٧)

(٣) شروح سقط الزند - القسم الرابع : السطر الثاني ص ١٤١٣

(٤) ديوان الخليل ج ٢ ص ٥٥٤

(٥) ديوان الخليل ج ٣ ص ٢٤٧

(٦) ومضات فكر ونبضات قلب : إبراهيم عبد الفتاح ص ١١

وعلى أوزان بحر الخفيف جاءت قصيدة الشاعر فريد عين شوكة :-

لا تلمني على بكائي وغمي أي صبر يعين في فقد أمي
أي كنز فقدته في نواها أي خسر أصابني أي غم (٣)

وكذلك جاءت قصيدة ابن سناء الملك :-

صح من دهرنا وفاء الحياء فليطل منكما بكاء الوفاء
وليبن ما عقد تماء من الصبر بأن تحلا وكاء البكاء (٤)

وتأتى قصيدة البريدوني على تفعيلات بحر الرمل :-

تركنتي ها هنا بين العذاب ومضت يا طول حزني واكتئابي
تركنتي للشقا وحدي هنا واسترلحت وحدها بين التراب (٥)

*مقدمة قصيدة الرثاء :-

تنوعت مقدمة قصيدة الرثاء بالنسبة للألم وذلك حسب ظروف إنشائها
فقد يبدأ الشاعر بمقدمة تناسب الرثاء، يتحدث فيها عن الدهر ومصائبه وأن
المرء لا بد ميت، وكل الناس إلى هذا المصير. ويبدو هذا واضحاً في
قصيدة أحمد شوقي في رثاء جدته، فهو لم يبدأ قصيدته بالحديث عن هذه

(١) عصر الدول والإمارات ص ٧٣٣ د شوقي ضيف

(٢) الرسالة السنة ١٥ سنة ١٩٤٧م عدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

(٣) ديوان ابن سناء الملك : ص ٦

(٤) ديوان عبد الله المر وذن الجلد الأول ص ١٣٨

الجدّة، وانما بدأها بمقدمة من سبعة أبيات تحدث فيها عن الحياة والموت وهو يقول في مطلعها :-

خلقنا للحياة وللممات	ومن هذين كل الحادثات
ومن يولد يعيش ويمت كان لم	يمر خياله بالكائنات
ومهد المرء في أيدي الرواق	. كنعش المرء بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكاء	فهل يخلو المعمر من أذى
هي الدنيا قتال نحن فيه	مقاصد للحسام وللنساء
وكل الناس مدفوع إليه	كما دفع الجبان إلى الثبات
نروع ما نروع ثم نرمى	يسهم من يد المقدور آت (١)

هذا هو المقطع الأول من القصيدة، وهو المقدمة التي ساق فيها الشاعر فكرته، وهي فكرة تتصل بالثرثاء موضوع القصيدة إلى أن يصل إلى البيت الثامن الذي يخلص فيه للحديث عن جدته بقوله :-

صلاة الله يا تمرّاز تجزى ثراك عن التلاوة والصلاة

سبعة أبيات يتحدث فيها الشاعر عن الحياة والموت، وأن الإنسان يولد ويعيش ويموت، كأنه لم يولد، ولم يمر خياله بالكائنات، ويعرج الشاعر على تلك الحياة التي يعيشها الإنسان فيصفها بأنها قصيرة، ويصل للتعبير عن قصر هذه الحياة بمهد المرء في أيدي الرواق ونعش المرء

(١) ديوان شوقي ج٢ ص٣٩٨

بين النائحات، فالمسافة بينهما قصيرة قصيرة، وهي فكرة كثيرا ما تلجأ إليها الشعراء على إبرازها في شعرهم، ومن هؤلاء محمد توفيق البكري عندما قال :-

وما أذن القوم لما أقاموا صلاة الجنائز يوم الوفاة
وأذن للطفل يوم الولاد فهذا الأذان لتلك الصلاة^(١)

ثم يعود شوق للتأكيد على أن الحياة لم يسلم من أذاها أحد، وإذا كان الوليد لم يسلم من أذاها، فهل يسلم من عمّ فيها من هذا الأذى ؟ فهي الدنيا قتال ونحن غرض للسهام، وكلنا مدفوع لهذا القدر، نروع ونرمى بالسهام بيد القدر، ومن هنا يكون قد مهد للدخول في الحديث عن هذا السهم الذي رمى به وهو فقد جدته، وشوقي يبدأ قصيدته في رثاء أمه بمقدمة تطول هذه المرة حتى تصل إلى أحد عشر من الأبيات تتلوها خمسة أبيات يتحدث فيها عن نفسه مع الدهر، ليدخل في الموضوع بعدها مباشرة.

وهو يبدأ مقدمة القصيدة بقوله :-

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهماً أصاب سويداء الفؤاد وما أصمي
من الهاتكات القلب أول وهلة وما داخلت لحماً ولا لا مست عظما

(١) محمد توفيق البكري د / ماهر حسن فهمي ص ١٥٩

توارد والناعي فأوجست رنة كلا ما على سمعي وفي كبدي كلما
فما هتفا حتى نزا الجنب وانزوى فيا ويح جنبي كم يسيل وكم يدمى
طوى الشرق نحو الغرب والماء للثرى إلى ولم يركب بساطا ولا يمسأ
أبان ولم ينيس وأدي ولم يفكه وأدمى وما داوى وأوهى وما دما
إذا طويت بالشهب والدم شقة طوى الشهب أوجب الغداية الدهما
والشاعر في هذه الأبيات يبدأ في إيراد فلسفته للموت والدهر
ومصائبه فيقول:-

ولم أر كالأحداث سهما إذا جرت ولا كالتالي راميا يبعد المرمى
ولم أر حكما كالمقادير نافذا ولا كلقاء الموت من بينها حتما
إلى حيث أباء الفتى يذهب الفتى سبيل يدين العالمون بها قدما
وما العيش إلا الجسم في ظل روحه ولا الموت إلا الروح فارق الجسم
ولا خلد حتى تملأ الدهر حكمة على نزلاء الدهر بعدك أو علما

والشاعر في هذه الأبيات يتحدث عن اللبالي والأحداث وأثرها في
الإنسان وأن الموت حتم والمقادير نافذة، والأبناء يسلكون طريق الآباء،
منذ القدم طريق واحد معروف .

ثم يبدأ في الحديث عن نفسه، أو على الأصح عن نفسه مع هذا
الدهر، فقد خير تصارييف الزمان، ولم يعد يبالي به كان نجما أم
رجما، ولم تعد تغره النعم ولا تؤثر فيه النقم :-

زجرت تصارييف الزمان فما يقع لى اليوم منها كان بالأمس لى وهما
وقد رت للنعمان يوما وضده فما اغترت البؤسى ولا غرت النعمى

شربت الأسى مصروفة لو تعرضت . بأنفاسها بالفم لم يستغق غمما
فأترع وناول يا زمان فإنمما . نديمك سقراط الذى ابتلع السما
قتلتك حتى ما أبالى أدت لى . بكأسك نجما أم أدت بها رجما
وإلى هنا وبعد هذه المقدمة الطويلة والطويلة جدا، يتحدث عن أمه
وموتها وتأثير الحدث في نفسه :-

لك الله من مطعونة بقنا النوى . شهيدة حرب لم تقارف لها أثما ^(١)
وترسم الشاعرة وفاء وجدي فى مقدمة القصيدة، ما قبل الحدث
بلحظات، وهى تجسم لنا الموت بزائر مكروه، راح يتسلل، وراحت ساعات
الليل تدق فى تناقل، وهى تتعثر بين الدقائق والثواني، والام تعاني سكرات
الموت، وأهات وحشرجة وغيبوبة، وتسلى الموت فى وضح النهار، فى
الظهر، ولو علمت أن الظهر يخون، وأنه يشارك الموت تسلىه
ويساعده لست يظهرها كل ثقب النور :-

دقت ساعات الليل ثقيلات الخطوات
تتعثر بين دقائقنا وثوانينا
آهات ... حشرجة ... غيبوبة
لكن ما عن لنا أن يأتى زائر المكروه
يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر

^(١) ديوان شوقي جـ ٢ ص ٥٣٧

لو أدري أن الظاهر يخون
لسدنت بقلبي كل ثقب النور
لتشبيث بساعات الليل الظلماء^(٢)

وهي مقدمة لا نستطيع أن نفصلها عن الحدث، بل هي بداية له
ومختلطة به ومؤدية إليه، بل هي الحدث ذاته في صورة مجمدة قصصية،
شأن كثير من الصور في شعر التفعيلة .

ومن القصائد التي بدأت بمقدمات أيضا، قصيدة نازك الملائكة عندما
وجدت الألم يعصرها ويكاد يفتتها ويقضى عليها، فلم تجد من وسيلة سوى
أن تجسد هذا الألم، وأن تصوره، وأن تغنى له، فبدأت قصيدتها بقولها

أفسحوا الدرب له للقادم الصافي الشعور
للغلام المرهف الحس السابح في بحر أريج
ذي الجبين الأبيض السارق أسرار الثلوج
إنه جاء إلينا عابرا خصب المروج
إنه أهدأ من ماء الغدير^(١)

ومع هذه القصائد التي بدأت بمقدمات، فإن قصائد كثيرة قد خلت من
المقدمات ويبدأ الشاعر بالبكاء مباشرة، أو بذكر الحدث، أو بمخاطبة

^(٢) الرؤية من فوق الجرح : وفاء وجدي ص ٣١

^(١) ديوان نازك الملائكة : المجلد الثاني ص ٢٩، دار العودة بيروت سنة ١٩٨٦ م

القبر، فمثلا قصيدة الشاعرة عائشة التيمورية بدأت
بمخاطبة القبر مباشرة :-

يا قبر فأهنا بالتي أحرزتها هي درة في الدرج لاحت تسطح^(٢)
في الوقت الذي يبدأ الشاعر حسن عبد الله القرشي برفضه أن تكون
أمه في القبر، فهي في عمق أعماقه وفي فؤاده لا في التراب :-

في عمق أعماقي مكانك في فؤادي لا تغيبني
لا في التراب فأنت ومض مشارق وشذي طيوب^(١)
ومن الشعراء من يفتح قصيدته على مشهد يبكي فيه أمه، واللائمون
يلومونه وهو يرفض هذا اللوم فلقد فقد ما يستحق البكاء :-

لا تلمني على بكائي وغمي أي صبر يعين في فقد أمي
أي كنز فقدته في نواها أي خسر أصابني، أي غرم^(٢)
ومن الشعراء من يفتح قصيدته وهو يخاطب اليوم الذي ماتت
فيه أمه، ويطلب منه أن يرحم فؤاده فقد كان يوما قاسيا لأنه شيع فيه
أمه، ووضعها في قبرها ورجع مكثوم الجوانح دامي الفؤاد :-
يوم الخميس ألا رحمت فؤاديا قد كنت يوما من حياتي قاسيا
شيعت فيك حنان أمي للثرى ووضعت في الغبراء كنزا غاليا

(٢) حليه الطراز ص ٣٠.

(١) ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني ص ٢٤٣

(٢) الرسالة السنة ١٥ سنة ١٩٤٧ العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

أعلى الكنوز دفنتها في حفرة ورجعت مكلوم الجوانح داميا^(٣)
ومن الشعراء من يلقى بالخبر مباشرة في صدر قصيدته وفي
مفتتحها، وذلك تجسيدا للحدث. **وذلك كما في قصيدة الدكتور محمد
العزب، حين يبدأها بقوله:-**

"أمي ماتت"

وأحرق خلف عيون الناس فلا أبصر حزنا
يا قسوة عين لا تبكي أحزان الناس
"أمي ماتت" (١)

فهي حقيقة لا تحتاج إلى تضخيم، إذ أنه أضخم حدث بحقيقته، لا
يحتاج إلى تكبير، فهو أكبر مصاب في الحقيقة، ومع ذلك، ومع أن ما
يستتبعه وهو حزن الناس أجمعين هو أمر طبيعي أيضا فإن الشاعر يصنع
الدهشة من عدم حدوث الحزن من الناس. ومن الشعراء من بدأ قصيدته
بالحديث عن حاله بعد وفاة أمه، فقد تركته الأم بين
العذاب، وخلفته مع حزنه واكتئابيه:

تركتني ها هنا بين العذاب ومضت يا طول حزني واكتئابي
تركتني للشقا وحدي هنا واستراحت وحدها بين التراب (٢)

(٣) ومضات فكر ونبضات قلب ص ١١٤

(١) الأعمال الشعرية الكاملة . دار محمد أحمد العرب ص ٦١٣

وربما افتتح الشاعر قصيدته بمخاطبة الام والدعاء لها والحديث عنها، مثلما فعل الشاعر خليل مطران في رثاء جدته :-

يا ترب عسرك بيتي في رحمة المتعالي (٢)

وفي قصيدته لأمه :-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظام النعم (٤)

وإذا كانت القصائد قد تنوعت في مقدماتها، فإن الثابت أن كل قصائد رثاء الأم لم تأت فيها المقدمة خارجة عن إطار الموضوع وهو الرثاء، بل جاءت مناسبة له ومتحدثة عنه وملتصقة به، كالحديث عن حكمة الموت وفلسفته، والزمان والدهر وما يصنع بالإنسان، وهو ضرب على وتر الحدث وليس ببعيد عنه.

* خاتمة قصيدة الرثاء :-

وإذا كان مفتح القصيدة وبدايتها يشهد فوران العاطفة عند الشاعر ومبلغ تأزمه من الحدث وشده التبايع فيلقى بهذا كله متخففا معبرا عما في داخله فإن الشاعر لا يصل إلى نهاية القصيدة وخاتمتها إلا وقد هدأ وتخفف من حملة، وعبر عما يعتل في داخله ويريد أن يختتم به قصيدته فهل يختتمها مسلما للقدر، ومسلما بوقوع الحدث فيصوغ أبيات الحكمة بأن

(٢) ديوان عبد الله الرديني ص ١٣٨ من المجلد الأول

(٣) ديوان خليل مطران ج ٢ ص ٥٥٤

(٤) ديوان خليل مطران ج ٣ ص ٢٤٧

هذا هو سبيل الناس كلهم ؟ أم يختمها بالدعاء بعد أن استسلم لوقوع الحدث
وصدق به ولم يعد أمامه إلا الدعاء ؟

فمن الشعراء الذين اختتموا قصائدهم بالدعاء الشاعر أحمد شوقي
عندما ختم قصيدته في رثاء جدته بالدعاء للنعش لاحقاً فيه بل لأجل جدته
ويمدحها بجميل الصفات، فهي سماء المكرمات، وهي كوكب سقط في
التراب وهي أخلاق طيبة دفنت في القبر، ومن ثم فقد راح ينظر إلى القبر
ويغضى ذاكرة حياة تلك الجدة فإذا هي قد مرت سريعاً كأنها لحظات :-

لما للنعش لاحقاً ولكن	لأجلك يا سماء المكرمات
ولا خانته أيدي حامليه	وإن ساروا بصيري والأناة
فلم أر قبله المريح ملقى	ولم أسمع بدفن النيرات
هناك وقفت أسألك انتادا	وأمسك بالصفة وبالصفات
وأنظر في ترابك ثم أغضى	كما يغضى الأبى على القذاة
وأذكر من حياتك ما تقضى	فكان من الغداة إلى الغداة ^(١)

ومن الشعراء الذين ختموا قصيدتهم بالدعاء أيضاً، الشاعر حسن عبد
الله القرشي، وذلك بعد أن يصور الحياة بأنها وهم كاذب، وبأننا نمشي
والمنايا تسبقنا، **نحلم ويعيننا وهمج الحقيقة لليأس والكوارث :-**

هذى الحياة نعيش عالمها على وهم كـذوب

(١) ديوان شوقي جـ ٢ ص ٥٣٧

هذى الحياة وثم مسبحنا على اللج الغضوب
 نمشى وتسبقنا المنايا في المسالك والذروب
 كم ننسج الحلم الجميل ولا نفكر في "شعوب"
 ويعيدنا وهج الحقيقة من سنا الحلم القشيب
 لليأس يعصف للشقاء وللكوارث والشحوب
 رباه ثم ودعة في ظل برزخك العجيب

حطها برحمتك القريبة أنت علام الغيوب^(١) ومع وجود الدعاء في نهاية
 القصيدة، وهو يعنى أن الشاعر قد سلم بالقضاء ورضيت نفسه بأن أمه
 أصبحت في عالم الغيب، وأنها تستحق الدعاء في عالم الأموات، فإن
 شعراء آخرين رفضوا الاستسلام لهذا الواقع ولم تهدأ نفوسهم وسيطر
 عليهم الحدث واختتموا قصائدهم بالبكاء والتحسر على هذه الأم، ومن
 الشعراء من فرغ من الأم والحديث عنها وبكائها ثم التفت إلى نفسه مفترحا
 . ومن هؤلاء الشعراء الذين اختتموا قصائدهم بالفخر، الشاعر أحمد شوقي
 فى بكاء أمه، فهو يخاطب تلك الأم فى نهاية القصيدة بأنها وإن كان قد
 فاتها ما كانت تأمله من مواكب، فكفاها هذا الشعر موكبا
 وحفاوة وتكريما، فهى أم نجيبة تضرب فى ذرى العلياء وشيمتها
 التواضع، مع أنها أنجبت أعظم شاعر، لم ينظم الشعر مثله أحد، وهو
 كالسحاب كرما والتبر نفاسة

(١) ديوان حسن عبد الله القرشي. المجلد الثاني ص ٢٤٨

لئن فات ما أملت من مواكب فدونك هذا الحشد والموكب الضخما
 رثيت به ذات التقى ونظمته لعنصره الأركى وجوهره الأسمى
 نمثك مناجيب العلا ونميتها . فلم تلحقى بنتا ولم تسبقى أما
 وكنت إذا هذى السماء تخاليت تواضعت لكن بعد ما فتها نجما
 أتيت به لم ينظم الشعر مثله وجئت لأخلاق الكرام به نظما
 ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الأرض كان المزن والتبر والكرما^(١)

ولعل نغمة الفخر هنا التي اختتم بها الشاعر قصيدته، جاءت نتيجة
 حتمية لشاعر في الغربية، وفي النفي، وبعيد عن أهله وأصحابه فلا بد له أن
 يستمسك بشيء وسط ضياع كل شيء، ووسط غياب كل شيء، فهو في
 النهاية لا بد أن يؤكد لنفسه هو أولا، أن الأم إذا كانت قد غابت فهو
 موجود، وأن ذاته وشاعريته ما زالت موجودة بفاخر بها ويعتز بها.

ولكن من الحق أن نقول إن أبا فراس الحمداني قد ألم بالظروف
 نفسها وابتلى بالغربة والأسر وموت الأم ورثاها وهو بعيد عنها في ظل
 هذه الظروف ومع ذلك لم يلجأ إلى الفخر لتأكيد ذاته وإنما ختم القصيدة
 وما زال يسيطر عليه الإحساس بالضياع، بضياع كل شيء بعد هذه الأم.

إلى من اشتكى ولمن أناجى	إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأي دعاء داعية أوقى	بأي ضياء وجه استنير
بمن يستدفع القدر الموقى	بمن يستنتج الأمر العسير

^(١) ديوان شوقي جـ ٢ ص ٥٣٧

نسلى عنك أنا عن قليل إلى ما صرت فى الأخرى نسير^(١)

وإن كان من الحق أيضا أن نذكر أن المتنبي قد عاش هذه الظروف فى موت جدته وهو غريب بعيد عن بلاده، وقد ختم قصيدته بالفخر، فهل استطاع المتنبي أن يللم جراحه وأن يتماسك وأن يشعر بذاته ويختم القصيدة بالفخر، ولم يستطع ذلك أبو فراس؟ وإذا صح ذلك فهل استطاع شوقي أن يللم جراحه، وأن يتماسك وأن يفاخر بنفسه فى مقابل هذا الضياع الذي يحس به، أم أنه كان مقلدا للمتنبي وهو يعارضه فقلده فى فخره وفى ختام قصيدته بالفخر؟

ونرى شوقي فى هذا الفخر الذي ختم به قصيدته بالحق المتنبي ويسير وراءه حتى ولو لم يكن المتنبي محقا فى ولوج ذلك الميدان^(٢)

ومن الشعراء الذين ختموا قصيدتهم بالفخر أيضا عبد الله البرد ونى، ولعل ظروف الشاعر وقد كان مكفوف البصر، وكانت أمه هي التي تقوده وتطعمه وتسقيه وقد أحس بعدها بالضياع والتشتت فلجأ إلى الفخر ليؤكد ذاته ويثبت وجوده ومن هنا يختم قصيدته بقوله :-

(١) ديوان أبي فراس الحمداني

(٢) مع ملاحظة أن الدراسة بررت لوجود هذا الفخر عند الشاعر الذي أحس فى غربته بضياع كل شئ فراح يؤكد ذاته بالفخر فى مقابلة هذا الضياع . ينظر المعارضة فى شعر شوقي . د / إبراهيم عوضين ص ١٨٤ مطبعة السعادة سنة ١٩٨٤م الطبعة الأولى

ها أنا يا أمي اليوم فتسى طائر الصيت بعيد في الشهاب
 أملاً التاريخ لحنا وصدى وتغنى في ربا الخلد ربابى
 فاسمعي يا أم صوتي وارقصي من وراء القبر كالحور الكعاب
 ها أنا يا أم أرتيك وفسى شجو هذا الشعر شجوي وانتخابي^(١)

ومن الشعراء الذين ختموا قصائدهم بالبكاء والتحسر والعودة إلى
 تذكر تلك الحياة السعيدة التي أصبحت ذكريات يستعيدوها في جلال ويجد
 في تذكراها راحة، الشاعر إبراهيم عبد الفتاح وذلك حين يقول:-

لك ذكريات أستعيد جلالها فأرى عطاءك كان فوق عطائيا
 وأرى حياتك كلها مبذولة عن طيب نفس كي تصون حياتيا
 هي ذكريات من حنائك لم أزل أتلوها الفضل العظيم الباقي
 أجد ارتياح القلب في تذكراها وكأن وجهك لا يزال تجاهيا
 تمضي السنون وطيب ذكرك في فمي وأراه أحلى ما يذوق لسانيا
 ثم يتحدث بعد ذلك عن الأم بصفة عامة ذاكرة فضلها إلى أن يقول :-
 ما من نبوغ يلفت الدنيا له إلا إليها ينتمي متناهيا
 إن تلتبس سببا لرفعه أمة تبصر مقام الأم فيها عاليا^(٢)

وتنتهي الشاعرة نازك الملائكة قصيدتها أو مرثيتها الثالثة لأُمها
 بالاستسلام لهذا الحزن الذي شخصته، وغنت له في المرتبة الأولى

^(١) ديوان عبد الله البردوق/ المجلد الأول ص ١٣٨

^(٢) ومضات قلب ص ١٦٦

صورة فيّة

- ١٧٧٣ -

والثانية، فهو كل ما تبقى لها ولذلك تهيه صلاة من الدموع، وتمنحه
مسكننا دائما في المآقي وتهيه حبا أقوى من النسيان :-

إنه كل ما تبقى لنا من وجه ضحكائنا ورجع الأغاني
إن فيه نهاية الطرف الثاني لما هدم الردي من أمان
فوهينا له صلاة من الأدمع خجلي مهموسة الألحان
ومنحناه مسكننا في مآقينا وحبا أقوى من النسيان ^(١)

ويوجه الشاعر محمد العزب إلى هذا المجتمع الذي يعيش فيه والذي
سيطرت عليه الأنانية، وعدم التعاطف مع الآخرين، دعوة إلى
التعاطف، وإلى الإحساس بالآخرين، فما عند الآخرين اليوم هو عندك
في الغد، والكل إلى هذا المصير :-

ونوافذ بيت الجارات

ترقص ذهلي

وكان علينا قد كتبت مأساة الموت

وكان عليهم أن يحيوا ليذفوا أعراس الموت !!

يا كل نوافذ قريتنا

يا كل نوافذ عالمنا

أبدا لن تفتح نافذة بعد الصبح

الكل يباب

^(١) ديوان نازك الملائكة المجلد الثاني ص ٣١٨

ويرفض الشاعر فريد عين شوكة البقاء بعد أمه، فهو لا يطيق الحياة بعدها ويطلب من الهالك والردى أن يقيض روحه حتى يلحق بأمه :-

لا أطيق الحياة بعد نواها
يا عوادي الردى فقدت رجائي يا ليت يومها كان يومى
فهلمى خذي الحياة هلمي (١)

ويختتم العقاد قصيدته في رثاء أمه بالحديث عن هذه القفار التي تلاقى فيها الأهل وطاب المقام لهم، ويعلن أنه كان يخاف الخطوب من أجل أمه، أما وقد فقد هذه الأم فإنه لم يعد يخاف الخطوب، وعلى أي شيء يخاف؟

فيا هولها من قفار تركت ويا شد ما قد عرت الرجاما
تلاقى ذوى بطن الثرى فأنهم بحيث أقاموا مقاماً
لأجلك كنت أخاف الخطوب فما الخوف بعدك إلا سلاماً (٢)

ويستسلم الشاعر محمد الهراوي لدموعه وأحزانه ويختتم بها قصيدته فيقول :-

أخضع يا أمي لقلبي ومدمعي على رغم ما أمديت من نصحك الجم
وأبكيك بالقلب الذي تعرفينه وللدمع شأن غير ذلك في الحكم (٣)

(١) الأعمال الشعرية الكاملة / د محمد احمد العرب ص ٦١٧

(٢) الرسالة : السنة ١٥ سنة ١٩٤٧م المجلد الثاني العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

(٣) ديوان العقاد ج ٢ ص ٩١ طبعة بيروت

الخيال ورثاء الأم:-

تحتاج العاطفة القوية إلى خيال قوى يعلن عنها ويبرزها ويوضحها . ومع ذلك إذا كانت هذه العاطفة مسرفة ومبالغية تحول الخيال إلى وهم . والعاطفة في رثاء الأم قوية (وإذا كانت المرأة ذات قرابة، فإن الصدق في العاطفة مما يفتح مجال القول، ويدنى الشاعر من العبارة المؤثرة الشجية، والصياغة في الرثاء ينبغي أن تكون ملائمة لعاطفة الأمى والشجن، موحية بألفاظها وصورها البيانية عما في النفس من ألم الفراق)^(١)

والخيال بهذه الصورة يعنى الكوة التي نستطيع من خلالها تصوير الأشخاص والمعاني وتمثيلها شاخصة أمام من تخاطبه ونستثير مشاعره^(٢)

ومن هنا فالخيال جوهر الأدب، وهو ليس زينة كزينة الحلي والرياش، وإن من أخطر الأشياء على الأديب أن يستعمله وشيا وتطريزا لأدبه، وأن يصبح كالأصداف التي تغر البصر ببريقها دون أن تقضي إلى رمز أو دلالة تؤديها^(٣)

(١) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبي : د طه أبو كريشه ص ١٥٦ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨م

(٢) النقد الأدبي : احمد أمين ص ٢٧ الطبعة الرابعة مكتبة النهضة

(٣) في النقد الأدبي : د شوقي صيف ص ١٧٣ دار المعارف الطبعة الثامنة

لقد أعاد الشعراء تشكيل اللغة وترتيبها لتتوافق مع عواطفهم وأحاسيسهم، أو فلنقل: لنستطيع هذه اللغة الجديدة، بهذا الترتيب الجديد نقل تلك المشاعر والأحاسيس إلينا.

ومن تلك الصياغات في قصيدة الرثاء :-

* الأساليب الإنشائية :-

تصور الأساليب الإنشائية من استفهام حائر متخبط، ونداء للتجسيد والإحساس بعدم الفقد، والأمر والتعجب، تشكل هذه الأساليب التي استخدمت في غير ما وضعت لها وأعاد الشاعر صياغتها ودلالاتها من جديد، جانباً مهماً في التعبير في قصيدة رثاء الأم.

ومن هؤلاء الشعراء الذين استخدموا أسلوب الاستفهام الذي خرج عن معناه ليبدل على حيرته من ناحية، وتعجبه من ناحية ثانية وإحساسه بالفقد، الشاعر فريد عين شوكة عندما يقول : " لا تلمنى على بكائي وغمي، أي صبر يعين في فقد أمي؟ أي كنز فقدته؟ أي خسر أصليتي أي غم؟ وبعد تعداد هذه الخسائر الفادحة والإحساس بالفقد يلجأ إلى البحث عما فاتته، في استفسارات واستفهامات الغرض منها تصوير ما فقده الشاعر بفقد أمه، أين منى دعاؤها، بركات تتوالى من السماء وتهمي؟ أين منى سؤالها عن طعامي وشرابي وعن قيامي ونومي؟ أين منى حنينها للقائي؟ أين منى وداعها في رحلي بالأمانى التي تجدد عزمي؟ أين منى لقاءها في إيابي بالتهاليل حين أهتف باسمي؟ أين منى صدق الفداء إذا ما

مسنى فى الحياة أيسر سقم ؟ أين منى نفس أسر إليها فرحتى أو شكايتى
من ملم (١) وهذه الاستفهامات الحائرة التى تكشف عن حالة الفقد
والضياح، عكستها أيضا أبيات الشاعرة جميلة العلايلي عندما تقول :-

العيد عاد ولم تعودى فأين ساقية الورود

بل أين من كانت توالى الطير من حب الحصيد .

بل أين. أين وأين يا أمى وكم لك من مزيد ؟ (١)

وهى تعدد أيضا تلك الأيادى التى فقدتها بفقد أمها، وعندما تنتقل
الشاعرة إلى عنصر آخر تترك هذه الاستفسارات إلى صياغة أخرى.
وتلفت أنظارنا الشاعرة وفاء وحدى إلى أن موت الأم فجّر فى ذهنها
استفسارات عديدة وأسئلة حيرى عن هذه الأحزان ووجودها :-

أجلت الأسئلة الحيرى

وجمعت الكلمات المتناثرة على الشفتين

كلمات تعييبها الالأم

ترهقها أن اسأل كيف وأين

ويثير الصمت العاتى فى الأعماق سؤالا

لم هذا الحزن يعيش فينا ؟

لم هذا الحزن ؟ (٢)

(١) الرسالة : العدد ٧٤٧ ص ١٨٧

(٢) نبضات شاعرة : جميلة العلايلي ص ٣٠

(٣) الرؤية من فوق الجرح : وفاء وحدى ص ٣١

وموت الأم عند الشاعر خليل مطران جعله يلقي بهذه الأسئلة التي يعرف إجابتها سلفا وهو يريد أن يشعرنا أنه لم يعد شئيا بعد أمه، لقد تتلثر وتلاشى، ولم يعد هناك من سبب يدعو إلى المجالدة والمكافحة في الحياة، أو بذل القوة والسعى :-

ماذا أنا ؟ ولمن مكافحتي ؟ وعلام بذلى قوتى ودمى ؟ ^(١)

ويشير عبد الله البردوني في استفهامه إلى فقد لظلمة الحاني، فقد أضحي بعيدا عنه بعد فقد هذه الأم :-

أين منى ظلها الحاني وقد ذهبت عنى إلى غير إياب ^(٢)

وقد يلجأ الشاعر إلى استخدام النداء، نداء من هي غير موجودة، وقد ماتت فينادى عليها عبورا بمرحلة الفقد وتأبيا عليها ورفضاً لها.

وذلك واضح في قصيدة الشاعر حسن عبد الله القرشي :-

مثواك يا أماء لا فى ظلمة الحدث الرهيب

ها نحن يا أماء أيب تام بمائدة الخطوب

أماء هل تصغين ؟ ما عودتني صمت الغريب ^(٣)

وكذلك في قصيدة الشاعر عبد الله البردوني :-

^(١) الديوان ج ٣ ص ٢٤٧

^(٢) ديوان حسن عبد الله القرشي : المجلد الثاني ص ٢٤٣

^(٣) ديوان عبد الله البردوني : المجلد الأول ص ١٣٨

آه يا أمي وأشواق الأسمى تلهب الأوجاع في قلبي المذاب
ها أنا يا أمي اليوم فتسى. طائر الصيت بعيد في الشهاب
فاسمعي يا أم صوتي وأرقصي. من وراء القبر كالحور الكعاب
ها أنا يا أم أرثيك وفسى. شجو هذا الشعر شجوي وانتحابي^(١)

وكذلك في قصيدة خليل مطران:-

واحرق قلبا يا أميمة أن تمضى ويمضى السعد من أمم^(٢)

وفي قصيدة الشاعر محمد الهراوي :-

تكشفت الأحداث بعدك يا أمي فيا طول ما أبقي من الحزن والهم
الله يا أماه ما أنا بـالذي تعود أن يقوى على الحادث الجهم
فإن قلت يا أماه أغناني اسمها عن الأب والأبناء والخال والعم
سرى لي يا أماه طيفك في الكرى. فغاب خيال الأم عن ذروة الأم
سأخضع يا أمي لقلبي ومدمعي على رغم ما أسديت من نصحك الجم^(٣)

وهذا هو العقاد يبكي أمه بقصيدة يخاطبها فيها مناديا عليها، متأهيا

على الغياب والفقد قائلا :-

فراقك يا أماه لم احتسب له بغتة أو نذيرا ترامي^(٤)

(١) ديوان عبد الله البرد ون: المجلد الأول ص ١٣٨

(٢) ديوان خليل مطران: ج ٣ ص ٢٤٧

(٣) الرسالة: العدد ١٢٨ ص ٢٠٢٧

(٤) الأم في الأدب: فتحى الايبارى ص ٢٨

ولذلك ومن أجل التأكيد على وجود تلك الأم وحضورها رأينا هذا النداء الشجي يتخذ عنوانا لقصيدة الشاعر فريد عين شوكة "أمي" وقصيدة محمد الهراوى "أماه" وقصيدة مختار الوكيل "يا أم" ويكتب الشيخ سيد قطب رائيا أمه في مقال تحت عنوان "أماه" يبدأ كل فقرة فيه بهذا النداء "من نحن اليوم يا أماه؟ نحن اليوم غرباء يا أماه، أماه. قد امتلأ حسي إرهابا بالكارثة قبل وقوعها. ٠٠٠ أماه. من ذا الذي يقص على أقاصيص طفولتي كأنها حادث الأمس القريب، أماه. عندي لك أنباء كثيرة. ثم يختم مقاله مردداً :-

أماه. ٠٠ أماه. ٠٠ أماه. (١)

وكذلك مقال "أماه" للأخسه أمينة قطب التي تردد في كل مقطع منه :-

أمي. ٠٠ أمي. ٠٠ أمي. ٠٠ (٢)

وكذلك حسن القرشي بعنوان لقصيدته "أماه"

وينادى : أماه : هل تصغين (٣)

وتنادى الشاعرة وفاء وجدى على أمها، بالصفات التي كانت تتمتع بها في حياتها :-

(١) الرسالة : العدد ٣٨١ ص ١٦٠٢

(٢) الرسالة : العدد ٣٨٢ ص ١٦٢٩

(٣) ديوان حسن عبد الله القرشي المجلد الثاني ص ٢٤٣

يا وشوشة العصفور على صدر الفجر

يا نقحة طيب علوية

يا منحة من أعطانا فيك الرحمة والحب^(٤)

وفى بعض الأحيان لا يستخدم الشاعر أداة النداء، بل يخاطب الأم مباشرة، وذلك يدل على تناسى الفقد، ومحاولة تمثل الأم حية حاضرة في ذهن الشاعر على الأقل :

ورحلت كائنك ما كنت لنا

عشا للأفراخ المهجورة

وكائنك ما كنت لنا

دفنا يتسلل عبر ليالينا المقرورة

ورحلت كحلم بدده صبح مغتر

وفقدنا حين فقدناك الرحمة والحب^(١)

فالشاعرة هنا ترفض أن يكون الحديث بضمير الغائب، ترفض أن تقول وفقدنا حين فقدناها. . . أبدا هي ليست غائبة، وإنما هي حاضرة تخاطبها، وتحكي لها، والعقاد يستخدم ضمير الخطاب أيضا في قصيدته، ويرفض الحديث عنها بضمير الغائب :-

خلا الكون منك فماذا أرى من الكون بعدك إلا ظلاما

(٤) ديوان : الرؤية من فوق الجرح ص ٣٢

(١) المرجع السابق ص ٣٣

فيا هولها من قفار تركت وبيا شد ما قد عرت الرجاما
لأجلك كنت أخاف الخطوب فما الخوف بعدك إلا سلاما^(٢)

ومع ذلك وجدنا بعض الشعراء يتحدثون في قصائدهم بضمير الغائب، أكثر من استخدام الفعل الماضي، كتجسيد لهذا الفقد، وإحساس بهذا الألم، رافضين العزاء والتأسي والتصبر، مجسدين المصيبة، بأكين عليها راثنين لها، صارخين بالألم من أجلها، ومن هؤلاء الشاعر إبراهيم عبد الفتاح عندما يقول:

أعلى الكنوز دفنتها في حفرة. ورجعت مكلوم الجوارح ياكيا
ومع ذلك ينتقل الشاعر متجاوزا هذه المرحلة في نهاية القصيدة، مخاطبا أمه

مناجيا لها، متحدثا معها :-

يا من نعمت ببرها وحنانها. ووجدتها في الحر ظلا ساجيا
لما اختفى مصباح وجهك أظلمت. في عيني الدنيا وعفت حياتيا
كم كنت أغضب في الحياة فإن بدا. لى وجهك البسام أبسم راضيا
أنا لست أنسى منك رأيا صائبا ألفى له ما كنت قبل رائيا
من غير علم تنطقين بحكمة كالوحي كالإلهام يشرق هاديا
كم كنت أسأل في حياتك ما الذى. أهدى إليك لكى يبين ويحيى

(٢) الأم في الأدب : فتحى الإيبارى ص ٢٨

أى الهدايا ترتضين أرفهها. لك كي أكون على الجميل مجازيا
والآن لا أهدى إليك هدية. إلا دموعا - لا تجف - جواريا ^(١)

بل إن الشاعر ليترقى فى هذا القرب من أسلوب الخطاب، كأن تلك
الأم ماثلة حية يخاطبها وتخاطبه وتسمع كلامه، يترقى فى هذا القرب وهذا
الإحساس إلى مرتبة أخرى هى مرتبة الحوار، وفيها يجرى الشاعر
حوارا مع أمه :-

أحس قلبك بارتياح عندما أتى ضريحك مستمدا داعيا ؟
أنفيس قلبك بالحنان كعهدنا بحنانه أم صار قلبا قاسيا ؟
ثم يجيب الشاعر سريعا قبل أن تنطق الأم، رافضا أن يعرف قلبها
القسوة أو الجفوة وتافيا أن يقل بركها على مر الأيام :-

حاشا لبرك أن يقل على المدى حاشا لقلبك أن يرى متجافيا
إنى أكاد أمس نبض فؤاده فى قبرها إن جئت أشكو حاليا ^(٢)
وربما كان الشاعر غريبا وقت الفاجعة، فانعكس ذلك على قصيدته
وجاء الحديث عن تلك الأم بضمير الغائب تجسيدا لهذا الفقد، وذلك فى
قصيدة شوقى :-

سقاها بشيري وهى تبكى صباية. فلم يقو مغناها على صوبه رسما

^(١) ومضات فكر ونبضات قلب : ص ١١٥

^(٢) المرجع السابق ص ١١٥

أست جرحها الأبناء غير رفيقة. وكم نازع سهما فكان هو السهما
تغار على الحمى الفضائل والعلل. لما قبلت منها وما ضمت الحمى
أكانت تمنأها وتهوى لقاءها إذا هي سماها بذى الأرض من سمى
آلمت عليها واتقت ثمراتها. فلما وقوا الأسواء لم ترها ذمما
فيا حسرتا ألا تراهم أهلة. إذا أقصر البدر التمام مضوا قدما
رياحين في أنف الولى وما لها. عدو تراهم في معاطسها رغما
وألا يطوفوا خشعا حول نعشها ولا يشبعوا الركن استلاما ولا لثما^(١)

وهكذا ترى التعبير بضمير الغائب وقد سيطر على القصيدة كلها
إحساسا بالغربة وغياب تلك الأم، وتجسيدا لهذا الفقد الذي ابتلى به مع
غريته.

ومن هنا فقصيدة رثاء الأم يمتزج فيها الإحساس بالفقد وتجسيده
فيتحدث الشاعر بضمير الغائب، معبرا بالفعل الماضي عما فقده وضاع
منه، ويتمزج ذلك مع لهفته على الإحساس بألمه ووجودها ورفضه أن
تكون قد غابت رغم الموت، فيخاطبها ويحدثها وينادى عليها ويحاورها
معبرا بالنداء وبضمير المخاطب وبالحوار أحيانا. ومن هذا المزيج
المتناقض في قصيدة الرثاء - رثاء الأم - يطلعنا الشاعر على ما يعتل في
داخله من أحزان، وترديه بين اليأس والأمل، والتصير والتماسك أو التردى
في وهدة الأحزان.

(١) ديوان شوقي ج ٢ ص ٥٣٢

وعندما يتحدث الشاعر عن أمه، وكيف كانت، فإنه يستعين في وصفها
بالتشبيه وقد وصف الشعراء أمهم بالكنز، فهم ضيعوه ودفنوه في التراب
شيعت فيك حنان أمي في الثرى ووضع في الغبراء كنزا غالبا^(١)
وكذلك في قصيدة الدكتور محمد العزب:-

ونعود مع الشفق الغارب
أطلال جدار منهار !!
ضيعة الكنز وعدنا نيكى كالأطفال !!^(٢)

وكذلك في قصيدة فريد عين شوكة:-

أي كنز فقدته في نواها أي خسر أصابني أي غرم^(٣)
ووصف الشعراء أمهم بأنها درة، وبأنها نعمة كبرى:-
يا قبر فاهنا بالتي أحرزتها هي درة في الدرج لاحت تسطع^(٤)
ومطران يصف أمه بالنعمة العظيمة:-

يا نعمة عظمت فلم تدم وكذا تكون عظام النعم^(٥)

(١) ومضات فكر ونبضات قلب: ص ١١٤

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة: دكتور / محمد احمد العرب ص ٦١٦

(٣) الرسالة: العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

(٤) حليه الطراز ص ٣٠

(٥) ديوان خليل مطران ج ٣ ص ٢٤٧

وبموت الأم تتحول تلك الحياة إلى ذكريات حلوة يشبهها الشعراء بتشبيهات
مختلفة فهذه الذكريات تنهادى كحبيب الرؤى عند الشاعر فريد عيسن
شوكته :-

ذكريات في خاطري تنهادى كحبيب الرؤى بأروع حلم ^(١)
وتلك الذكريات تشكل راحة للقلب عند الشاعر إبراهيم عبد الفتاح :-
هي ذكريات من حنانك لم أزل أتلو بها الفضل العظيم الباقي
أجد ارتياح القلب في تذكراها وكأن وجهك لا يزال تجاهي ^(٢)
ويشبه البردوني آثار الصفو هذه بخيالات الشباب فيقول :-
خلفتني أذكر الصفو كما يذكر الشيخ خيالات الشباب ^(٣)
ويشبع التشبيه في تصوير حياة الأم، كما في قصيدة "البرد ونى" :-
هددت كفاك رأسي مثلما هددت الفجر رياحين الروابي
وسواقى النهر تلقى لحنيها ذاتها كاللطف في حلو العتاب ^(٤)
وفى قصيدة خليل مطران :-

يبكيك نسل كثير أنجبته للمعالي
بين الكهول وبين الشباب والأطفال

-:-

^(١) الرسالة : العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

^(٢) ومضات فكر ونضات قلب ص ١١٤

^(٣) ديوان عبد الله البردوني : المجلد الأول ص ١٣٨

^(٤) المرجع السابق ص ١٣٨

وأنجم وشمسوس من عفة وجمال^(٥)

فهو يشبه هؤلاء الرجال والفتيان بالأهله والبدور، وهؤلاء النسوة
بالأنجم والشموس، هذا النسل الكثير الذي أنجبته جدته، ويشبه حاله بعد
موت الأم، فعزه كالذل، والإثراء كالعدم^(١)

ويشبه إبراهيم عبد الفتاح تلك الأم بالأليكة، وبالروح، وبالأنياء
ويقلب الكون ونيراس يضيء شعاعه، وهي كالربيع، و مزنة من السماء

الأم مثل الأنبياء رسالته	وكجندهم في الصالحات تقاتيا
الأم نيراس يضيء شعاعه	سبل الحياة فليس يترك داجيا
الأم عين لا تنام مع الدجى	إن بات ليلىك ساهرا أو شاكيا
هي من سماء الحب أكرم مزنة	سقت الثرى فنما وطاب مجانيا
هي كالربيع كسا الحياة جمالها	وأجل منه على الحياة أياد يا ^(٢)

ويشبه سيد قطب أمه وهي ترعاهم بالطير الذي يعيش على أفرأخه
وبأنهم ما زالوا فراخا زغبا في حاجة إلى رعايتها " والعش الذي خلفته
ستظل فراخه زغبا مهما امتد بها الزمن، لأن يدك الرقيقة لا تسمح ريشها
وتباركه " (٣)

(٥) ديوان خليل مطران ج٢ ص ١٣٨

(١) ديوان خليل مطران ج٣ ص ٢٤٧

(٢) ومضات فكر ونضات قلب ص ١١٤

(٣) الرسالة : العدد ٣٨١ ص ١٦٠٢

ويشبه فريد عين شوكة محيا هذه الأم بيد التمام

وهي تسعى إلى دون اقتدار بمحيا كأنه بدر تم
ويصور حديثها بأنه كالشهد:-

والحديث الشريف يقطر كالشهد د برينا من اغتيال ودم

ويصور كتما نها للسر فيشبهه بشيء ألقية في الخضم :-

ثم تمضي الأحداث والسر خاف فكاني ألقية في خضم (٤)

ويستعين الشعراء في تصويرهم للأسى والحزن بالاستعارات
والمجازات والكنايات وغير ذلك، فالبردوني يكنى عن الموت
بقوله "حاصد العمر":-

ودعاها حاصد العمر إلى حيث أدعوها فتعيا عن جوابي

ويستخدم الاستعارات والمجازات في قوله :-

حيث أدعوها فلا يسمعي غير صمت القبر والفقر البياب

أه يا أمي وأشواك الأسى تلهب الأوجاع في قلبي المذاب

كم هدنتي يدك السم إلى حقلنا في الغول في قاع الرحاب (١)

وفي قول الشاعر إبراهيم عبد الفتاح :-

إن يحبس الدمع الحياء أساله من جاء بالقول الجميل مواسيا (٢)

(٤) الرسالة : العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧

(١) ديوان عبدا لله الردون : المجلد الأول ص ١٣٨

(٢) نضات فكر ونضات قلب ص ١١٤

وفى قول العقاد :-

وأفحمنى فيك خطب النعى فى وفى غيره ما شكوت الفحاما^(٢)

وفى قول المهراوى :-

سرى لى يا أماه طيفك فى الكرى فغاب خيال الأم عن ذروة الأم^(٣)

وفى قول : وفاء وجدى

دقت ساعات الليل ثقبيلات الخطوات

تتعثر بين دقائقنا وثوانينا

أهات حشرجة غيبوبة

لكن ما عن لنا أن يأتى زلزال المكروه

يتسلل من ثقب فى نافذة الظهر^(٤)

ومع شيوع الخيال بهذه الصورة فى قصيدة رثاء الأم، فقد كان للحقيقة دورها فى هذه القصيدة، بل ربما جاء أسلوب الحقيقة على بساطته صادقا ناصعا مشعا، فيجسم المصاب مستمدا من بساطته وواقعيته قيمة حقيقية تجعله أبلغ من كل خيال. فإذا كان للخيال أثره القوى فى الصورة،

^(٢) الأم فى الأدب : فتحى الإيبارى ص ٢٨

^(٣) الرسالة : العدد ١٢٨ ص ٢٠٢٧

^(٤) الرسالة : العدد ١٢٨ ص ٢٠٢٧

وسحره البارع في النفس، فإن الأثر الجمالي قد يوجد فيها من الجمال والروعة ما يقوم مقام الخيال (٢)

وقد صاغ الشعراء حقيقة الموت مجردة من كل خيال فكانت أكثر وقعا وأشد تعبيراً، ومن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد العزب عندما يقول

" أمي ماتت "

وأحرق خلف عيون الناس فلا أبصر حزناً !!

يا قسوة عين لا تبيكي أحزان الناس !!

أمي ماتت !!

لكن حمائم جارتنا

مثنى مثنى !!

وأنا أتحسى كلمات ذابلة الوجه بلا معنى !!

" ماتت... ممتنا " !! (٣)

هكذا يكرر الشاعر تلك الحقيقة الفاجعة أمي ماتت " ماتت... ممتنا "

ويلتفت ليرى جمود الناس والمشاعر والحركات، وقد جاءت الجملة الخيرية على بساطتها مصورة للفجعة أعظم تصوير.

(٢) الرسالة : العدد ١٢٨ ص ٢٧-٢٠

(٣) الأعمال الشعرية الكاملة : شعر الدكتور محمد أحمد العرب ص ٦١٣

وكذلك قول الشاعر عبد الله البردوني في قصيدته :-

تركنتي ها هنا بين العذاب ومضت يا طول حزني واكتئابي^(١)

تركنتي، وهي التي كانت تطعم وتسقى وتأخذ بيده لتهديه الطريق، ومع ذلك تركته، وتركته ها هنا، بين العذاب، وتركته ومضت، هذه الكلمات البسيطة الخالية من أي خيال، هي أكبر دلالة من أي خيال، بعد أن تعرف ظروف هذا الابن المكفوف البصر الذي لا يستغني عن تلك الأم

العاطفة :-

إذا كانت عاطفة الحزن هي التي تسيطر على قصيدة الرثاء بشكل عام، فإن رثاء الأم لا يحتاج إلى تصنع لهذا الحزن، ولا تشتت العاطفة، وإنما تسيطر على قصيدة رثاء الأم عاطفة الحزن الصادقة غير المفتعلة، إلا أن عواطف أخرى وأحاسيس مغايرة تتداخل مع هذه العاطفة، لا لتشتتها وتزيقها، بل لتعاضدها وتوازرها، وذلك وفقا لظروف إنشاء كل قصيدة من ناحية، وظروف موت الأم من ناحية أخرى، وظروف وقت إنشاء الشاعر للقصيدة من ناحية ثالثة. ولولا هذا التنوع والتلون داخل إطار الحزن لأغنت مرثية واحدة عن غيرها من المراثي^(٢)

^(١) ديوان عبد الله البردوني : المجلد الأول ص ١٣٨

^(٢) يشرح أحمد الشاذلي في " الأسلوب " إلى أن قراءة مرثية أبي العلاء لعبت عاطفة المعنى التي أنشأها، لن تند لابن الرومي أو أي تمام أو شوقي ذلك لأن عاطفة المعنى من طراز خاص به . أصول النقد الأدبي : أحمد البهجة المصرية الطبعة الثامنة

يعرف طعم الحزن، ولم يذق اليتيم، وعندما فقد أمه وهو كهل هذا الأسى
عزمه وهوى ركنه، والشاعر عمر بهاء الدين الأميرى يطلب فى قصيدته
ألا يعذله، أو يعتب عليه أحد فى بكاء تلك الأم فقد كانت ضياء العمر
وموئل النفس ومدخر الحياة :-

يا صاحب لا تعذلونى فى البكاء وقد فقدت أمى فقلبى ليس من حجر
أمى وقد كانت ضياء فى دجا عمرى وموئل النفس فى الجلى ومدخرى ^(١)
والشاعر إبراهيم عبدالفتاح يؤكد أنه رغم موت أمه وقد شابت
مفارقة، فقد ارتد طفلا صغيرا يصرخ من الألم :-

راحت وقد وخط المشيب مفارقى فرأيتنى كاطفل يصرخ باكيا ^(٢)
وهكذا نرى تفرع وتشقق عاطفة الحزن إلى عناصر أخرى تمتد
العاطفة الرئيسية بزاد لا ينفذ من تأكيد هذا الحزن وتقويته وقد تكون
الغربة والإحساس بالضياح دافقا للتشبث بما بقى مع الإنسان فيدفعه ذلك
إلى الفخر بنفسه وبتلك التى ماتت، وهو ما نراه فى قصيدة أحمد شوقي
عندما نفى إلى الأندلس وعاش بعيدا عن وطنه، ومجده وجاهه، ثم نعت
إليه أمه، فراح يتماسك ويتماسك ولم يستطع، ولم يجد إلا الفخر ملاذا
يستند عليه. وقد ارجع كثير ممن كتبوا عن شوقي وجود عنصر الفخر فى
قصيده الرثاء، إلى معارضته أو تقليده للمتنبى وأبى العلاء، وقد أدى وجود
عنصر الفخر إلى فقر فى عاطفته (وبعد فإننا نستطيع أن نقول إن قصيدة

^(١) الرثاء فى الشعر العربى د محمد حسن أبو ناهى منشورات دار مكتبة الحياة الطبعة الثامنة

^(٢) ومضات فكر ونبضات قلب ص ١١٤

شوقي أصيبت من أول الأمر بفقر عاطفي دفع شوقي إلى محاولة ستره فكانت تلك الحكم الهزيلة، والمفاخر المسرفة^(٣) فالمعارضة هي التي جعلته يقد من يعارضه، وأصاب قصيدة الرثاء بهذا الخواء العاطفي، ويشير الدكتور شوقي ضيف إلى أبيات الحكمة التي يبدأ بها شوقي قصيدته والتي ينحاز فيها عن النذب والبكاء وبيث اللوعة إلى التفكير في الحياة والموت، وإن دنيانا لحظات قصيرة ملأى بالأوصاف والالام ويسترسل في هذا العنصر الإنساني حتى يخرج القصيدة من حيز الرثاء الشخصي إلى حيز إنساني عام، يجد فيه كل مواطن، بل كل عربي سلوته وعزاه، وما يساعده على أن يصرع حزنه وشقاءه وأوجاعه النفسية، كأن يقول في رثاء جدته :-

ومهد المرء في أيدي الروافي كنعش المرء بين الناحات

ولا ينسى الدكتور شوقي ضيف أن يشير إلى تأثير شوقي بالمتنبي وأبي العلاء، وذلك بقوله :- "وليس هذا العنصر في رثاء شوقي جديدا في العربية"، فهو موجود من قديم، ووسعه المتنبي، ثم انتهى به أبو العلاء إلى الغاية في مراتبه إنما الذي نلاحظه أن شوقي استغل هذا العنصر في رثائه، ولم يفته استغلاله إلى أبعد الحدود حتى يعمق في قرائنه إحساسهم أو قل حتى يخاطب أعماق نفسياتهم، وهو يسلك في هذا العنصر حكما كثيرة مقلدا أستاذه المتنبي^(١)

^(٣) للمعارضة في شعر شوقي د إبراهيم عوضين ص ١٨٥ مطبعة السعادة الطبعة الأولى

^(١) شوقي شاعر العصر الحديث د شوقي ص ١٥٣ دار المعارف الطبعة الثامنة

وتفرع عاطفة الفخر عن الرثاء أمر طبيعي سلكه الشعراء في القدم عندما دعت الحاجة إلى ذلك، عندما أحسوا بالضيق والتشتت فراحوا يتماسكون ويلوذون بالفخر في محاولة للتمسك بما بقي لهم، من هؤلاء في القديم أبو العلاء المعري في رثاء أمه، وكذلك المتنبي في رثاء أمه أيضاً وفي العصر الحديث نجد الشاعر أحمد شوقي كما مر بنا.

وكذلك نجد عبد الله البردوني، وقد كان مكفوف البصر فلما ماتت أمه وقد كانت تطعمه وتسقيه وتهديه الطريق وكانت كل حياته وعندما ماتت راح يتنأثر ويتشتت وفي محاولة للتمسك لجأ إلى الفخر فقال :-

ها أنا يا أمي اليوم فتى طائر الصيت بعيد في الشهاب
املاً التاريخ لحنا وصدي وتغنى في ربا الخلد ريابي (٢)

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الفخر عنصر من عناصر الرثاء، أو متفرع عن عاطفة الحزن، فقد أشار أحمد الشايب عند حديثه إلى تنوع العاطفة كما وكيفا إلى أن الحزن يلبس أحيانا ثوب العبرة أو الشوق أو الشكوى أو التأسى والتصبر على الخطب الفادح أو الفخر الذي هو تحد لهؤلاء الذين يعتزون على الدنيا بسلطانهم الطريف، ويصرفون شئون الخلائق بما طرأ عليهم من عزة، وكل ذلك حزن عام واحد التيار، مهما تختلف مظاهره الجزئية الفرعية أو درجته في القوة (٣)

(٢) ديوان البردوني

(٣) أصول النقد الأدبي/ أحمد الشايب ص ١٩٩ مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة

وقد يتفرع عن الإحساس بالحزن فرع آخر هو الحيرة أمام لغز الموت، ويروح الشاعر أسير تساؤلات حائرة، يديرها بينه وبين نفسه، ولا يجد لها إجابة، ما سر فقد الأحبة؟ وما سبب غيابهم؟ وما الحكمة من ذلك؟ ومن هؤلاء الشعراء الدكتور محمد احمد العزب عندما يبكي أمه فيقول:

ويسير النعش على أعناق الناس إلى الوادى الآخر !!

وأنا أتساءل :

ما جدوى أن أحيا أو يحيا الآخر ؟

هذا غدنا

أن يحملنا ممولون !!

أن يبكينا مبكيون !!

أن نعبّر هذا الكون إلى كون غامض !!

المؤمن يحيا خلف جبال الموت هناك بلا موت !!

وأنا أتساءل :

ولماذا لا نحيا دنيانا الحلوة فى هذا البيت ؟

ما حكمة أن نحصد من حقل العالم أعناق الأزهار ؟

كى نطعم آلاف الديدان ؟

ما أتقنها !!

كى يمسى العالم تحت دثار الليل القابض فى صمت ؟

ما أتقنها !!

لو نمك قلنا القابع في أعماق الجرح :
جادلنا بالحرف.

وأسقط من يدك سكاكين الذبح !!

والشاعر في شدة حيرته يتساءل، ويصر على أن يثبت هذا في كل مقطع، فهو مجرد تساؤل، وفقط، وهي حيرة وفقط، هو ليس اعتراضا ولا شكاً ولا يقينا، ولكنها مرحلة ما بين هذا وذاك، نتجت عن حيرته أمام فقد الأعزّة والشاعر في مقطع آخر لا يتساءل وإنما يأخذنا معه، ويجعلنا نعيش هذه الحيرة، وتتساءل كلنا أمام هذه اللوحة الحقيقية، حين نشارف مقبرة الأسرة، ونلاحظ أنه كان في اللوحة الأولى يتساءل وحده *وأنا أتساءل* " ولكنه في هذه المرة ومع هذا المقطع يأخذنا معه، لم يتساءل وحده؟

امقتنعون انتم ؟ أذن فليكن هؤلاء معى " ونشارف مقبرة الأسرة " ويرسم هذه المقبرة فإذا هي هاوية العدم، وإذا هي فاعرة فاهها، جائعة أبدا لتلك البراعم الخضراء ويبدأ الشاعر أماننا، وأماننا جميعا في تجربة حائرة، ينادى فيها على أبيه، أن يرحب بتلك الأم، وأن يستقبلها ويرجوه أن يقوم ليرحب بها، أن يوقد شمعته، أن ينير قبره، ثم يناديه - تسمعنى؟ وباله من سؤال إجابته معروفة لنا جميعا ونحن شهود عليه وتكرر في الحيرة *لفظة* " أم تكشف عن تردده بين هذا وذاك بين الشك واليقين، بين الحقيقة والخيال بين الثابت والمتغير، رحب بالضيف القادم من وادى

العدم !! أم أنك أنت الآخر تحيا خلف متاهات العدم ؟ تسمعنى ؟ أم ما زلت رجاما بين رجامات أخرى ؟ أم أنى أتكلم شيئا طينيا من لغة الأرض ؟ ويؤكد الشاعر على أنه يتساءل ليعرف، ليرد إلى صوابه، لينزل برد اليقين فى قلبه، إنه لا يشك، ولكنه يريد لينزل اطمئنان القلب. يا أبتي هم قالوا للموتى إن عبروا، دنيا أخرى، أنا لا أنفى حاشا للفانى أن ينفى حتى الأشياء المنفية! لكنى انشد أن اسمع يا أبتي صوتك مهموسا، حتى مهموسا، فالشاعر لا يبغي الحقيقة واضحة ناصعة، ولكنه يتلمس مجرد شعاع ضوء، خيط حقيقة، بارقة اطمئنان وتلك الحيرة هى عنصر من عناصر الحزن، لا يمكن أن تنفصل عنه، بل أزعج أنها تؤكد وتقويه وتدل عليه يقول الشاعر:

ونشارف مقبرة الأسرة !!

هاوية العدم الجوعى أبدا لبراعيم الخضرة !!

فأدمدم فى صوت من:

يا أبتي قم رحب بالضيف القادم من وادى العدم

أم أنك أنت الآخر تحيا خلف متاهات العدم ؟

إن كنت سمعت ..

فقم رحب بالضيف القادم يا أبتي !!

قم يا أبتي أرجوك ..

وأوقد شمعاتك !!

رقرق فى الحفرة بعض تهاويل الضوء !!

بعض الألوان على تهاويل الضوء !!

فلأنا يحنقنى أن تحيا أمى فى ليل منطفئ !!

تسمعنى ؟

أم ما زلت رجاما بين رجامات أخرى ؟

يا ابنتى .. هم قالوا " للموتى إن عبروا دنيا أخرى " !!

أنا لا أتقى ..

حاشا للقاتل أن ينفى حتى الأشياء المنفية !!

لكنى أشد أن اسمع يا ابنتى صوتك مهموسا !!

حتى مهموسا .. مهموسا !!

يهى من خلف تخوم الأبدية !! (١)

ومع تنوع عاطفة الحزن بهذه الصورة وتلك الكيفية، فإن عاطفة الحزن أيضاً تتنوع كما ودرجة، فنراه عتيقا حاداً يرفض التوقف أو التأسى والتصبر أو عميقاً رزيناً هادئاً يتأسى ويتصبر :-

ومن العاطفة الحادة العنيفة قصيدة الشاعر فريد عين شوكة، تلك التى صاغها فى أبيات تزيد على خمسين بيتاً لم تخدم فيها عاطفته ولم تهدأ من أول بيت إلى آخر بيت، يبدأ القصيدة بالتحسر على ما فقده:-

لا تلمنى على بكائى وغمى أى صبر يعين فى فقد أمسى

أى كنز فقدته فى نواها أى خسر أصابنى أى غم ؟

وهو ينهى قصيدته بأنه لا يطبق الحياة بعدها ويتمنى أن لو كان قدسبقها ومات قبلها، ويتمنى فى آخر بيت فى القصيدة أن يزوره الردى والموت والهلاك :-

(١) الأعمال الكاملة شعر الدكتور محمد احمد العزب ص ٦٤

مـرور فـيـة

-٢٠٠-

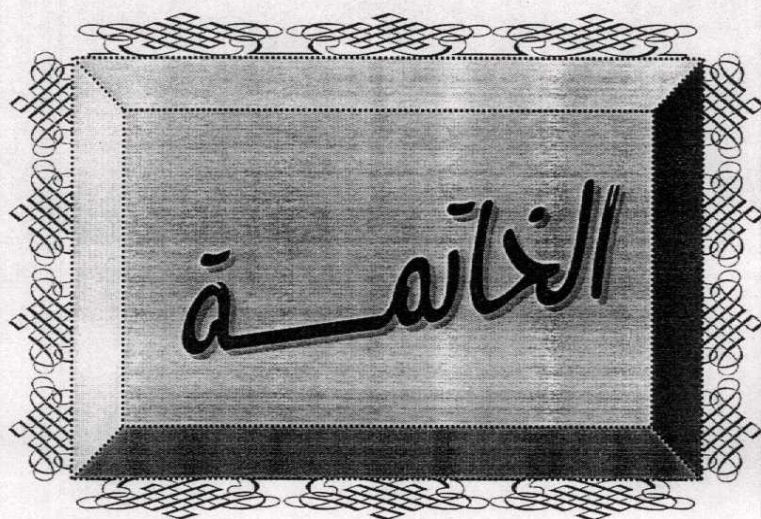
أيها الدمع لاهجرتك حتى ينزف القلب في انسكابك دمي
أيها الصبر لا عرفتك حتى يستوى في جوار أمي جسمي
لا أطيق الحياة بعد نواها أه باليت يومها كان يوممي
يا عوادي الردى فقدت رجائي فهلمى خذي الحياة هلمى^(١)

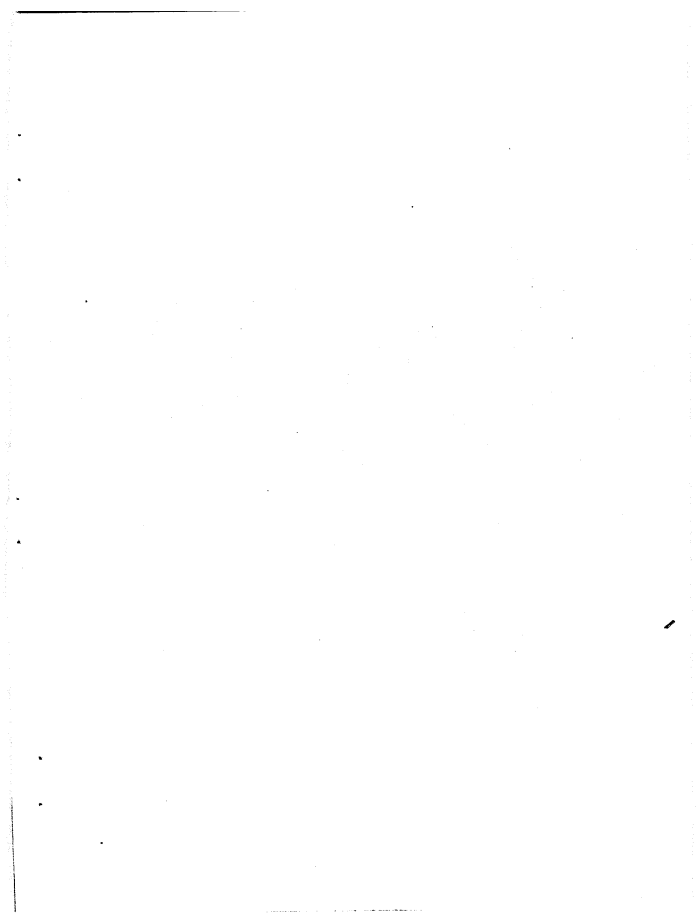
ومن النوع الآخر الذي نجد فيه عاطفة الحزن هادئة رزينة وتهدأ
وتستسلم في نهاية القصيدة، قصيدة الشاعر خليل مطران قس زئاع جيتيه
والتي يبدأها بقوله:

يا ترب عصرك بيتي في رحمة المتعالي
حببت خير حياة وألت خير مآل
وينهيها بنفس العاطفة الحزينة المستسلمة بعد أن عدد خصالها الكريمة:-
اليوم أخطرها البين كلها في بالي
وسلسلتها دموعي على ثراك الغالي^(٢)
وهكذا نجد تنوع عاطفة الحزن في قصيدة الرثاء كما وكيفاً بهذه
الصورة التي تناولتها الدراسة.

(١) الرسالة : العدد ٧٤٧ ص ١١٨٧ قصيدة بعنوان " أمي "

(٢) ديوان خليل مطران ج ٣ ص ٢٤٧





الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :-

فقد اهتمت هذه الدراسة برثاء الأدباء لامهاتهم في أدبنا العربي الحديث، وإن كانت قد أشارت في تمهيد سريع إلى الأم في أدبنا العربي قبل ذلك، وقد تحدثت الدراسة عن مدى اهتمام الشعراء بالأم في حياتها وبعد مماتها، مصورين في عاطفة صادقة دور الأم في تشكيل حياتهم، ومدى ما أصيبوا به بعد فقدها، وتصوير هؤلاء الأدباء لتلك العاطفة. وقد كان لهذه الدراسة بعض السرى المتواضعة يستحسن أن نوجزها في تلك الخاتمة.

* ترجع الدراسة أن بدايات رثاء الأم كانت عند ابن الرومي وليس الصنوبرى كما يقول الدكتور شوقي ضيف.

* تؤكد الدراسة على أن بدايات رثاء الأم كانت عند ابن الرومي والصنوبرى، وليست عند المتنبي كما يقول فتحى الأبيارى.

* هناك من الشعراء من كتب إلى أمه في حياتها وذلك في شعرنا القديم والحديث فمن القديم، نجد الشاعر أبا فراس الحمدانى، يكتب إلى أمه وهو فى سجنه، مؤاسيا وداعيا إلى الصبر والتأسى بالخنساء. وفى العصر الحديث نجد روحية القلبنى، وطاهر زمخشري، وعبد الرحمن العشماوى ومحمد عبد الغنى حسن، ومما يدحض تلك القولة التى تدعى أن الشاعر لم يعرف أمه فى شعره إلا رائيا.

* لم ينس الشاعر أمه بعد قصيدة الرثاء، وإنما ظل يكتب عنها بعد مماتها

وبعد رحيل جسدها، ومن هؤلاء الشاعرة جميلة العلالي، والدكتور محمد أحمد العزب.

* تناول الشعراء في قصيدة الرثاء قضايا عديدة عكست هموم العصر، ومن ذلك قصيدة الدكتور محمد أحمد العزب التي صورت عدم المشاركة الوجدانية من الآخرين والتي أصبحت ظاهرة تغلف حياتنا الحديثة، وتكشف خواء العاطفة عند الناس، وكذلك قصيدة "دمعة على جماعة الهاتف" للشاعر عبد الرحمن صالح العشماوي تلك التي تصور الاغتراب والسفر والبعد عن الأم.

* شغلت قصيدة الرثاء بموضوع واحد وهو رثاء الأم وخلت من المقدمات.

* تميزت العاطفة في قصيدة الرثاء للأُم بالصدق ولذلك خلّت من التصنع

* رثى الأدباء أمهاتهم شعرا ونثرا، وجاءت قصيدة الرثاء في قوالب مختلفة.

* قلّد المحدثون القدماء في الدعاء للأُم بالسقيا.

* تفاوت الشعراء في وقوفهم من الحدث ما بين جزع وهلع وما بين تماسك وتصبر

* لجأ الشعراء إلى التشبيه عند الحديث عن الأم وفضلها، ولجأ الشعراء عند الحديث عن الفقد إلى المجازات والاستعارات وغير ذلك.

* تنوعت عاطفة الرثاء كما وكيفا، صعودا وهبوطا، وفخرا وتأسيا وحزنا وتساولات حائرة.

* تشتت الشاعر وتبعثره وانطلاقه من الحزن إلى الفخر إلى التأسى إلى غير ذلك، لايعنى تشتت العاطفة بقدر ما يعنى فوران هذه المشاعر وانطلاق صاحبها من الضد إلى الضد، ومن النقيض إلى لنقيض، ولكن ذلك لا يخرج عن دائرة الحزن ولا يعنى تشتت العاطفة.

* ناقشت الدراسة علاقة البحر بالموضوع وانتهت إلى أن قصيدة رثاء الأم تأتي في بحور مختلفة، وأن البحر الواحد تأتي أوزانه سريعة تارة وبطيئة أخرى لتناسب حدة عاطفة الشاعر أو هدوء تلك العاطفة.

■ ولذلك فكل قصيدة تعد نمطا مخصوصا يدرس على حدة طبقا لظروف إنشاء تلك القصيدة.

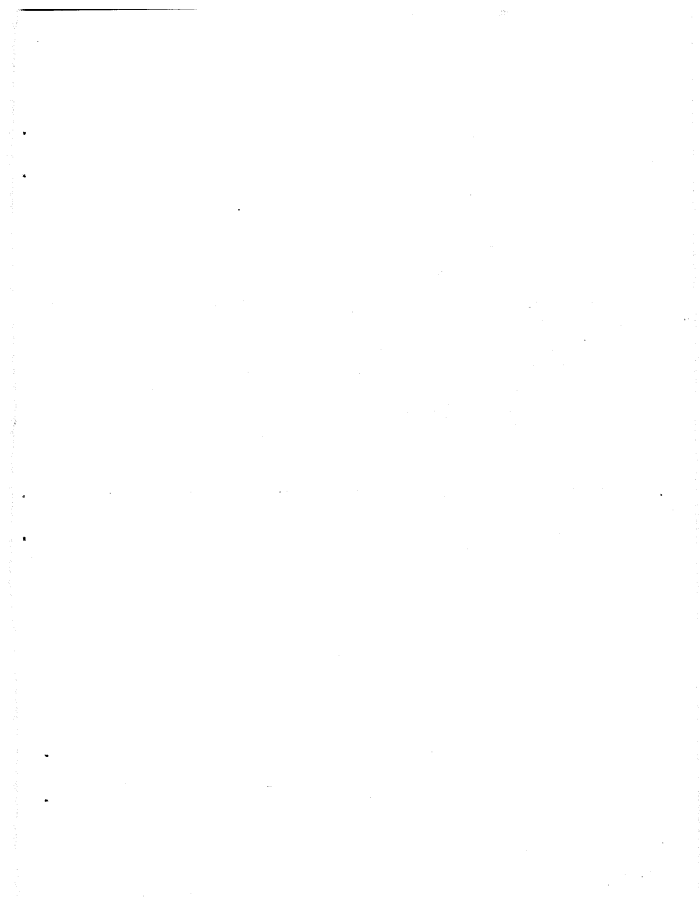
* جاءت قصيدة الرثاء نموذجا ملهما للشعراء في موضوعات أخرى، كطفل نلذك الملائكة في قصيدة الرثاء، وطفل صلاح عيد الصبور في موضوع آخر.

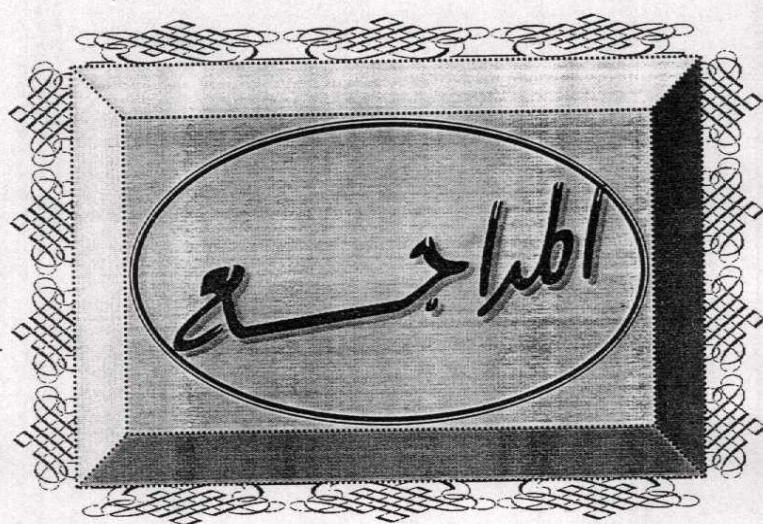
* الكبر والشيب لا يعنى جمود العاطفة، ولا عدم التأثير بموت الأم، بل أثبت الشعراء أنهم يتأثرون بفقدانها "وأم لما دون عشر تعز فكيف بأم لسبعين عاما".

والحمد لله رب العالمين
(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا)
أمين

دكتور

عيد الناصر محمد السعيد





المصادر والمراجع

- (١) أبو العلاء المعري د عائشة عبد الرحمن
سلسلة أعلام العرب
- (٢) أصول النقد الأدبي أحمد الشنايب
مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٣ م
- (٣) الأغاني. الأصفهاني دار العودة بيروت
- (٤) الأم في الأدب فتحي الأبياري
الدار القومية للطباعة والنشر
- (٥) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر
د/ علي علي صبيح
المكتبة الأزهرية سنة ١٩٩٦ م
- (٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب
الأستاذ / أحمد طه إبراهيم
دار الحكمة بيروت
- (٧) ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء
رجاء النقاش
دار سعاد الصباح الطبعة الأولى
- (٨) الخيال الشعري عند أبي الطيب المتنبى
د/ طه مصطفى أبو كريشة
الطبعة الأولى سنة ١٩٧٨ م
- (٩) دراسات في الشعر العربي
محمد إبراهيم أبو سنه
سلسلة اقرأ
- (١٠) ديوان - ابتهاجات قلب
روحانية القلبي
طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

- (١١) ديوان - ابن الرومي
تحقيق د/ حسين نصار
القاهرة مطبعة دار الكتب سنة ١٩٧٣ م
- (١٢) ديوان - ابن سناء الملك
تصحیح د/ محمد عبد الحق
دار الجيل بيروت سنة ١٩٧٥ م
- (١٣) ديوان - ابن سنان الخفاجي
المطبعة الأنسية بيروت
- (١٤) ديوان - أبو فراس الحمداني
دار صادر بيروت
- (١٥) ديوان - احمد شوقي
شرح وتوثيق د/ احمد الحوفي
دار نهضة مصر للطباعة والنشر
- (١٦) ديوان - الأعمال الشعرية الكاملة
د/ احمد محمد العزب
الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ م
- (١٧) ديوان - إلى حواء
عبد الرحمن صالح العشماوي
مكتبة الأديب الرياض . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ
- (١٨) ديوان - أمي
بهاء الدين الأميري
- (١٩) ديوان - ترانيم الرمال
عبد العزيز محمد النقيدي
مطبوعات نادي القصير
- (٢٠) ديوان - حسن عبد الله القرشي
حسن عبد الله القرشي
دار العودة بيروت

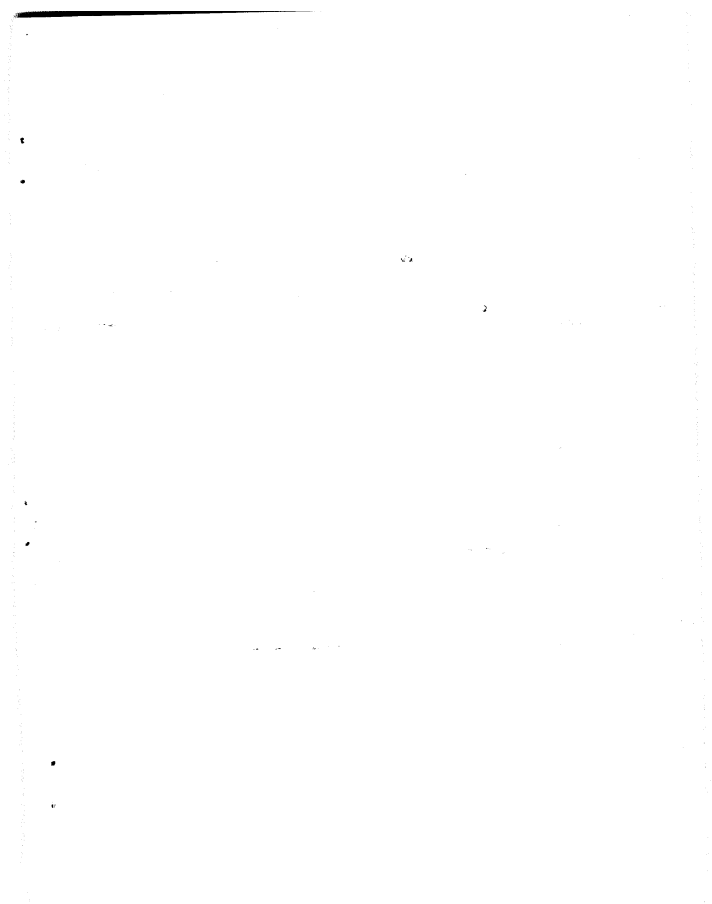
- (٢١) ديوان - حلية الطراز
عائشة التيمورية
المطبعة العامرية - مصر
- (٢٢) ديوان الخنساء
تحقيق الدكتور إبراهيم عوضين
مطبعة السعادة الطبعة الأولى
- (٢٣) ديوان خليل مطران
خليل مطران
دار مارون عبود بيروت
- (٢٤) ديوان الرؤية من فوق الجرح
وفاء وجدي
طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨ م
- (٢٥) ديوان - سائر على الدرب
محمد عبد الفتاح حسن
المكتبة العربية القاهرة سنة ١٩٧٤ م
- (٢٦) ديوان - شرح ديوان المتنبي
البيضاوي
دار صادر بيروت
- (٢٧) ديوان - شروح سقط الزند
الدار القومية للطباعة والنشر
- (٢٨) ديوان - الشريف الرضي
القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ
- (٢٩) ديوان - الصنوبري
تحقيق د/ إحسان عباس
دار الثقافة بيروت سنة ١٩٧٠ م
- (٣٠) ديوان - عبد الله البردوني
دار العودة بيروت طبعة أولى سنة ١٩٧٩ م

- (٣١) ديوان العقاد
منشورات المكتبة المصرية - بيروت
- (٣٢) ديوان القروي
رشيد سليم الخوري
الجمهورية العربية الليبية . وزارة الثقافة
- (٣٣) ديوان كشاجم
تحقيق د / النبوي شعاع
مطبعة الخانجي الطبعة الأولى
- (٣٤) ديوان لزوم مالا يلزم
أبو العلاء المعري
دار صادر بيروت
- (٣٥) ديوان المازني
إبراهيم عبد القادر المازني
- (٣٦) مجموعة النيل
طاهر زمخشري
الناشر : تهامة جدة السعودية سنة ١٩٨٤ م
- (٣٧) ديوان نازك الملائكة
نازك الملائكة
دار العودة بيروت
- (٣٨) نبضات شاعرة
جميلة العلايلي
الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ م
- (٣٩) ومضات فكر ونبضات قلب
إبراهيم عبد الفتاح
دار الصفا للطباعة والنشر سنة ١٩٩٠ م

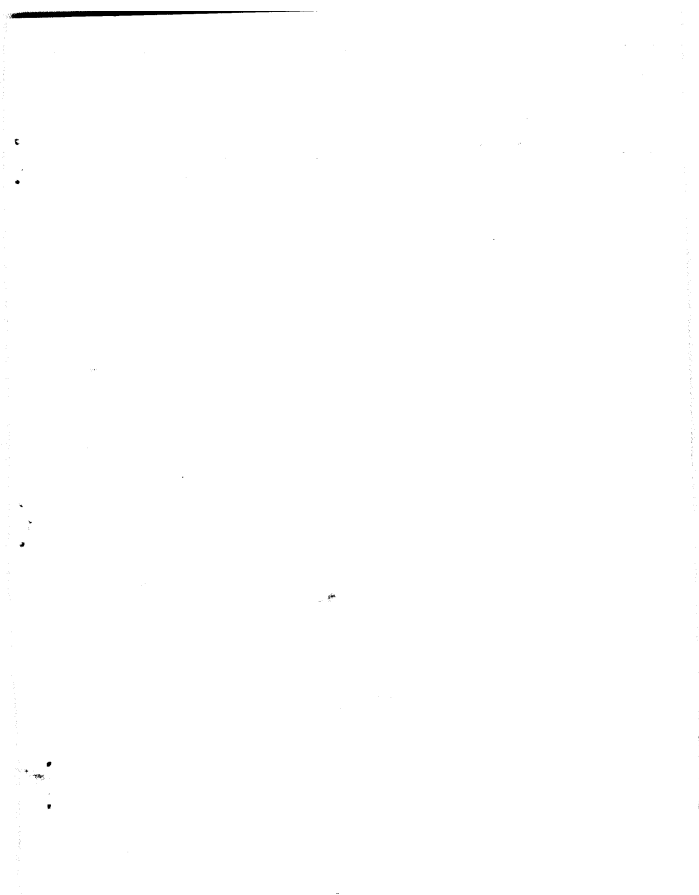
- (٤٠) رثاء الأبناء في الشعر العربي
د. مخيمر صالح موسى
مكتبة المنار
- (٤١) الرثاء في الشعر العربي أو جراحات قلب
د. محمود حسن أبو ناجي
بيروت سنة ١٤٠٢ م.
- (٤٢) الرثاء
د. شوقي ضيف
دار المعارف الطبعة الرابعة
- (٤٣) ساعات بين الكتب
عباس محمود العقاد
منشورات المكتبة المصرية بيروت
- (٤٤) شاعرية العقاد
د. عبد الحى دياب
دار النهضة العربية
- (٤٥) الشريف الرضى - حياته وشعره:
حسن جعفر نور الدين
دار الكتب العلمية بيروت - لبنان سنة ١٩٧٢ م
- (٤٦) شعر المتنبي قراءة أخرى
د. محمد فتوح أحمد
دار المعارف الطبعة الثامنة
- (٤٧) الشعر العربي المعاصر في اليمن
د. عبد العزيز المقالح
دار العودة بيروت الطبعة الثالثة
- (٤٨) الشعر والشعراء -
تحقيق محمد شاكر

- (٤٩) صورة المرأة في العصر العباسي
د. علي أبو زيد
دار المعارف سنة ١٩٨٣ م
- (٥٠) عصر الدول والأمارات، مصر والشام
د. شوقي ضيف
دار المعارف الطبعة الثامنة
- (٥١) العصر العباسي الثاني
د. شوقي ضيف
دار المعارف الطبعة السادسة
- (٥٢) العمدة
ابن رشيقي
دار الجيل الطبعة الرابعة
- (٥٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي
د. شوقي ضيف
دار المعارف الطبعة العاشرة
- (٥٤) في ميزان النقد الأدبي
د. طه مصطفى أبو كريشة
القاهرة سنة ١٩٧٦ م
- (٥٥) في النقد الأدبي
د. شوقي ضيف
دار المعارف الطبعة الثامنة
- (٥٦) الكامل
المبرور
طبعة بيروت
- (٥٧) مجلة الرسالة

- (٥٨) محمد توفيق البكرى
د. ماهر حسن فهمي
سلسلة أعلام العرب
- (٥٩) مع المتنبي
د. طه حسين
دار المعارف الطبعة الثالثة عشرة
- (٦٠) المعارضة في شعر شوقي
د. إبراهيم عوضيين
مطبعة السعادة طبعة أولى سنة ١٩٨٢ م
- (٦١) من حديث الشعر والنثر
د. طه حسين
دار المعارف الطبعة العاشرة
- (٦٢) موسيقى الشعر
د. إبراهيم أنيس
الطبعة الخامسة
- (٦٣) النقد الأدبي
أحمد أمين
مكتبة النهضة الطبعة الرابعة



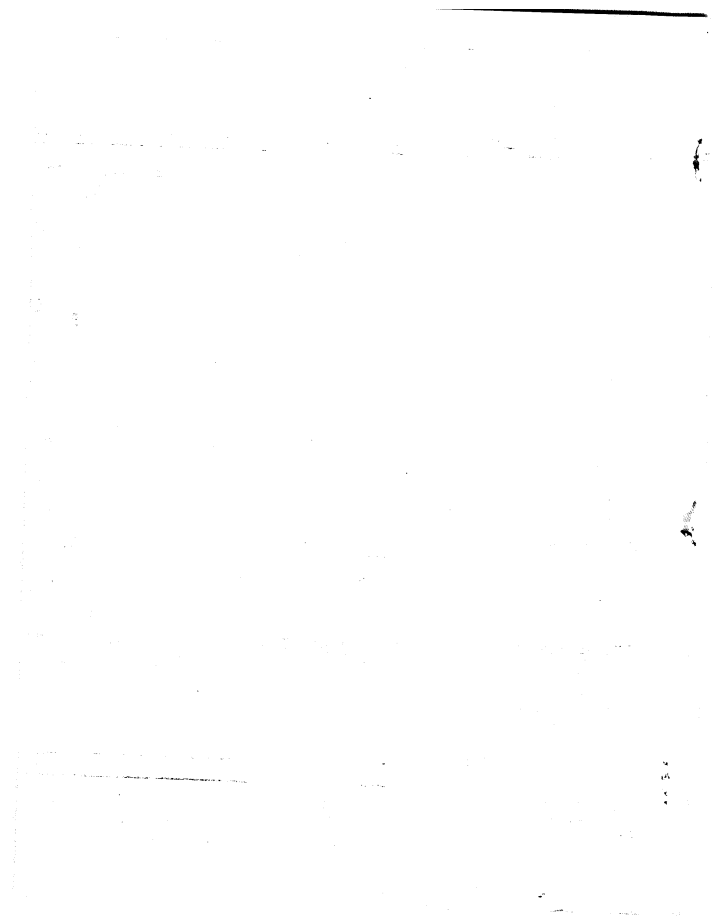




الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٥
تهييد.....	١١
-ابن الرومي.....	١٣
-الصنوبري.....	١٨
-المتنى.....	٢٠
-أبو فراس الحمداني.....	٢٩
-بين المتنى وأبي فراس الحمداني.....	٣٤
-الشريف الرضى.....	٣٦
-أبو العلاء المعرى.....	٤٣
-ابن سنان الخفاجي.....	٥٢
-ابن سناء الملك.....	٥٣
-كشاجم.....	٥٩
الفصل الأول (الدراسة الموضوعية).....	٦٢
-المدح.....	٦٣
-حنان الأم.....	٧١
-حكمة الأم.....	٧٤
-مرض الأم.....	٧٧

٧٨.....	شكوى الزمان
٨٠.....	تمني المصدا
٨٦.....	الناس والعزاء
٩١.....	الدعاء للأم
٩٣.....	وقفه الشعراء على القبر
٩٥.....	أثر فقد الأم في الأبناء
١١٠.....	صور مفردة
١١٥.....	في حياة الأم
١٣٠.....	بين الأم والأب
الفصل الثاني (صور فنية)	
١٣٥.....	مضاركة الكون للشاعر في بحر
١٣٩.....	-التشخيص-
١٤١.....	-التصنع-
١٤٤.....	-المعارضة والتصنع-
١٥١.....	-الأوزان-
١٥٩.....	-مقدمة القصيدة-
١٦٧.....	-خاتمة القصيدة-
١٧٥.....	-الخيال-
١٩١.....	-العاطفة-
٢٠٣.....	-الحقيقة-
٢٠٧.....	-المراجع-



رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٠ / ٧٥٤٤
في ١٥ / ٤ / ٢٠٠٠ م